جامعة النَّجاح الوطنيَّة
كليَّة الدّراسات العليا

الأثر المسيحي في روايات حسن حميد (جسر بنات يعقوب، وأنين القصب، ومدينة الله، والكراكي) أنموذجاً

إعداد
أنوار فتح الله "محمد شفيق" ياسين

إشراف
د. عدوان عدوان

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها،
من كلية الدّراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس – فلسطين.

2024

الأثر المسيحي في روايات حسن حميد (جسر بنات يعقوب، وأنين القصب، ومدينة الله، والكراكي) أنموذجاً

إعداد

أنوار فتح الله "محمد شفيق" ياسين

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2024/07/04، وأجيزت:

د. عدوان عدوان	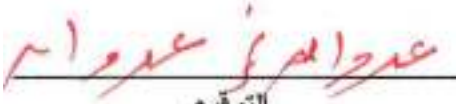
المشرف الرئيسي	**التوقيع**
د. طه طه	
الممتحن الخارجي	**التوقيع**
أ. د. خليل عودة	
الممتحن الداخلي	**التوقيع**

الإهداء

إلى من علمني أن الدنيا كفاح، وسلاحها العلم، من سلكت هذا الدرب لأرى حرارة تصفيقه فرحا بإنجازي... والدي الغالي

إلى منبت التضحية والعطاء، كبيرة المقام... أمي الغالية

إلى بلسم الروح الذي قاسمني فصول الدرب، وكان لي خير معين و أنيس... زوجي العزيز

إلى السند بهجة الروح، وزينة الحياة... إخوتي نبض القلب

إلى من اقتطعت من وقتهم الكثير، بذرة الفؤاد، وأمل الغد ابنيّ (محمد، ويوسف)

إلى كل الظلال الطويلة خلف كواليس الحكاية

أنتم لي وطن، وأنا من دونكم في غربة حالكة...

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فإنني أشكر الله العلي القدير أولاً وآخراً أن وفقني لإتمام هذا البحث، فهو أحق بالشكر والثناء وأولى بهما، وإنني أتوجه بالشكر، والتقدير لأستاذي القدير (الدكتور عدوان نمر عدوان) الذي وقف معي، وأعانني، ونصحني، وأرشدني بتوجيهاته وملحوظاته، وأحاطني بعنايته ونصائحه، وبالمتابعة طوال فترة الكتابة، فجزاه الله عني خير الجزاء، وبارك فيه، وجعله مرشداً لكل طالب علم، وكرمه بالرفعة، ومحبة الناس.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير، وعظيم الامتنان لعضوي لجنة المناقشة؛ على تفضلهما بمناقشة أطروحتي الدكتور طه طه ممتحناً خارجياً، والدكتور خليل عودة ممتحناً داخلياً، فلهما مني كل الاحترام.

الإقرار

أنا الموقعة أدناه مقدمة الرسالة التي تحمل عنوان:

الأثر المسيحي في روايات حسن حميد (جسر بنات يعقوب، وأنين القصب، ومدينة الله، والكراكي) أنموذجاً

أقرّ بأنّ ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها، لم يقدم من قبل لنيل أية درجة، أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثيّة أخرى.

اسم الطالبة: أنوار فتح الله "محمد شفيع" ياسين

التوقيع: أنوار ياسين

التاريخ: 4/7/2024

فهرس المحتويات

الإهداء ..... ج

الشكر والتقدير..... د

الإقرار ..... ه

فهرس المحتويات..... و

الملخص..... ط

المقدمة 1

أسباب اختيار الدراسة 3

منهج الدراسة..... 4

الدراسات السابقة 4

خطة الدراسة..... 6

الصعوبات..... 6

الروايات في سطور 7

الفصل الأول: الأماكن المسيحية في روايات حسن حميد المنتخبة..... 10

المبحث الأول: المكان مفهوما، وتطبيقا 10

المبحث الثاني: الأماكن المسيحية المفتوحة والأماكن المسيحية المغلقة في الروايات المنتخبة..... 15

المطلب الأول: الأماكن المسيحية المفتوحة..... 15

المطلب الثاني: الأماكن المسيحية المغلقة..... 18

المبحث الثالث: دلالات الأماكن المسيحية 23

المطلب الأول: جسر بنات يعقوب 25

المطلب الثاني: درب الآلام 29

المطلب الثالث: كنيسة القيامة 32

المطلب الرابع: كنيسة المهد 36
المبحث الرابع: علاقة الشخصية بالمكان المسيحي 38
الفصل الثاني: الرموز المسيحية في الروايات المنتخبة 49
الرمز المسيحي 49
المطلب الأول: الزيت 51
المطلب الثاني: القيامة 53
المطلب الثالث: الشموع 56
المطلب الرابع: المغفرة 58
المطلب الخامس: الكراكي 59
المطلب السادس: التطويب 61
المطلب السابع: الملح 63
المطلب الثامن: الخبز 64
المطلب التاسع: الصلاة 65
الفصل الثالث: الحكايات المسيحية في الروايات المنتخبة 67
المطلب الأول: حكاية الأضحية 72
المطلب الثاني: حكاية الجدّ وتعليقه على مسمار خشبي 75
المطلب الثالث: حكاية النهر المقدس 78
المطلب الرابع: حكاية حنا... المحرم المر 83
المطلب الخامس: حكاية اقتحام البرق المغارة 84
المطلب السادس: حكاية شجرة العشرة 86
المطلب السابع: حكاية الكنيسة التي تحولت إلى مسجد ثم إلى مطعم 87
المطلب الثامن: حكاية النار المقدسة 92

الفصل الرابع: البعد التكويني، والتوعوي الـــوطني، والتوعـــوي السياســـي للأثـــر المســـيحي فـــي الروايات 94

مدخل 94

المبحث الأول: البعد التكويني للأثر المسيحي في الروايات المنتخبة 95

المبحث الثاني: البعد التوعوي الوطني للأثر المسيحي في الروايات المنتخبة 101

المبحث الثالث: البعد التوعوي السياسي للأثر المسيحي في الروايات المنتخبة 105

الخاتمة 116

المراجع العلمية 118

Abstract ..... b

الأثر المسيحي في روايات حسن حميد
(جسر بنات يعقوب، وأنين القصب، ومدينة الله، والكراكي) أنموذجاً

إعداد

أنوار فتح الله "محمد شفيق" ياسين

إشراف

د. عدوان عدوان

الملخص

تناولت الباحثة في دراستها موضوعا مهما في النقد الأدبي الحديث عامة والثقافي خاصة، ولما كانت من أولئك المتابعين للسرد العربي بشكل عام، والفلسطيني بشكل خاص، وكتابات حسن حميد تحديدا، وما أثارته من إشكالات عنّ للباحثة النظر فيها من اتجاه مختلف لما اعتاد الباحثون والدارسون سلكه.

فسارت في هذه الدراسة بهدي النقد الأدبي، ومن خلال دراسة توظيف الأثر المسيحي، وجماليته حاولت جاهدة تحليل الروايات (جسر بنات يعقوب، ومدينة الله، وأنين القصب، والكراكي) بعناية فائقة؛ لوضع تصورات، ورؤى للجوء الكاتب إلى الأثر المسيحي، منتجة باكورة جديدة في الدراسة الأدبية النقدية.

وتكونت الرسالة من مقدمة، وأربعة فصول مدعمة بعدة مباحث وخاتمة، مبينة في المقدمة أهمية الرسالة، وأسباب اختيار الروايات المنتخبة، وأبرز الأسئلة التي ستجيب عنها، ومبينة منهج الدراسة، وأهم المصادر.

فكان للباحثة وقفة في الفصل الأول عند الأماكن المسيحية التي ذكرها الكاتب، ومعالجة أنواعها ودلالاتها، وعلاقتها مع الشخصيات. وعرّجت الباحثة في الفصل الثاني على الرموز المسيحية الواردة في الروايات، وإسهامها في تشكيل بنية الروايات المنتخبة وسرديتها. ومن خلال الفصل الثالث تناولت الحكايات المسيحية في الروايات المنتخبة، ودلالة استخدامها، وانعكاسها على الواقع. وفي الفصل الرابع عالجت الباحثة البعد التكويني والتوعوي لاستخدام الأثر المسيحي في الرواية، وقوة حضوره في وجدان

القارئ. وتليت الدراسة بخاتمة عرضت أهم ما خلصت إليه الباحثة من النتائج والتوصيات التي قدمتها؛ لتكون مجالا للبحث والدراسة مستقبلا.

الكلمات المفتاحية: النقد الأدبي، النقد الثقافي، المغفرة، الزيت المبارك، التطويب.

المقدمة

الرواية من الفنون الأدبية الحديثة الدارجة في الساحة الأدبية التي لاقت رواجا كبيرا عند القراء؛ للتطور السريع الذي اعتراها، ومواكبتها لمراحل حياة المجتمعات ومشاكلها، وقدرتها على مخاطبة عقل القارئ ووجدانه؛ فهي تلتصق بهموم قرائها، وتشحنهم بمعانيها وغاياتها، وتأخذ على عاتقها إسقاط الأقنعة الزائفة، وكشف الحقائق.

والرواية العربية تتوسل بيئتها فما جاء في أعمال الكتاب العرب ما هو إلا حصاد تجارب حياتية واقعية، عاصروها هم أو من حولهم، أو سمعوا عنها فكانت لبنة أولى لإبداعاتهم، إضافة لارتباط الرواية العربية المعاصرة بوقائع العصر الحديث وصراعاته؛ مما خلق مرجعية خاصة في ذهن الروائي. وفي خضم الحديث عن البيئة، والواقع المعيش، وانعكاسهما في الرواية فإن الدين جزء لا يتجزأ منهما، وله تأثير حاضر في أعمال الكتاب، وإبداعاتهم. وروايات حسن حميد يظهر فيها الأثر المسيحي بصورة جلية، ولا سيما أنه ابن منطقة بلاد الشام المتعددة الأديان والمذاهب، فعملت هذه التعددية على إثراء رواياته، وإكسابها الطابع الثقافي، فجاء الأثر المسيحي حاضرا في رواياته حضورا كثيفا؛ مما يدل على أن الكاتب نهل من بئر المسيحية قدرا كافيا لتذوب في ثقافته، وتظهر بوضوح تام لقارئ رواياته.

استطاع الكاتب الفلسطيني حسن حميد في رواياته الأدبية الغوص في كينونة القضايا التي أشار إليها، وعالجها بطريقة فريدة، فتجاوز أزمنة وأمكنة، وشخصيات، وأساطير، وكتبا دينية مقدسة، واستطاع أن يرسم لنفسه جسرا أدبيا خاصا يسير عليه ليصل بحكاياته إلى آفاق مميزة، تلك الحكايات التي برع في نسجها وأحسن غزلها وحبكتها.

تدخل روايات حسن حميد في حوارية لافتة للنظر، تجمع في مضامينها الجانب الشكلي والأيدولوجي، بحيث تتعدد الأصوات والحوارات والخطابات والقضايا بعيدا عن هيمنة الكاتب وسلطته، الأمر الذي يمنح الرواية قوة في حواريتها وانفتاحها على عوالم مختلفة.

وظهر الأثر المسيحي في بعض عناوين رواياته؛ فمثلا في رواية" جسر بنات يعقوب" بدى متأثرا بقصة يعقوب عليه السلام كما رويت في الكتب المقدسة (الإنجيل والتوراة). ورواية" أنين القصب" وعلاقة الأنين، والوجع بالذكر المفصل، والحديث المطول عن الآلام التي كابدها السيد المسيح، وطريق الآلام التي مشاها، حتى إنه برع في وصفها بأسلوب يجعل القارئ يشعر بأنه يعايش صلب المسيح واقعا وحاضرا كما جاء في الأناجيل.

من ناحية أخرى اتخذت الأعلام المسيحية مساحة كبيرة في رواياته، مثل: (حنا، وإلياس، وطنوس، وهيلانة، وجوديت، ورحمون، وماريا، وعطايا)، وغيرهم. وذكر الأديرة والكنائس على اختلاف أسمائها وأماكن تواجدها، مثل: الشماصنة، وكنيسة القيامة، وكنيسة المهد، والرامة، وحي الآرمن، والكثير غيرها.

إلى جانب ذلك وظف القصص والحكايات كتقديس الزيت، والبخور، والخبز المقدس، وقصص الاعتراف بالذنب للرهبان؛ من أجل قبول التوبة، والبراءة من الخطيئة، وحكاية المسيح مع المغارة المقدسة في القدس، وطقس المباركة الذي يعدّ من أهم الطقوس المسيحية، والكثير من مثيلاتها، وكلها لم يأت ذكرها لملء السطور، وإنما وظفت لخدمة الروايات المنتخبة.

تبرز بعض روايات حسن حميد التناقض التام بين ظاهر الشخصيات وباطنها، وكان ذلك سمة بارزة لها حظ وفير في شخصيات الرهبان، وقصصهم؛ فتارة يبدو الراهب بصورته الجلية، ورهبانيته التي عهدناه عليها، وتارة ينزع عن نفسه ثوب العزلة، ويعود لطبيعته التي جبل عليها، فيخطئ، ويحن لشهواته، أو ينغمس فيها، وإن أقنعتنا صورته الخارجية بتخليه عنها، واعتزالها إلا أنها حقيقة تعيش في أعماقه، وفي لا وعيه مهما حاول كبحها، أو كبتها.

لم يأت توظيف المسيحية في روايات الكاتب عبثا، أو من قبيل المصادفة، بل قصد تحقيق غايات كثيرة سواء على المستوى التكويني، أو الوظيفي، أو التوعوي؛ من هنا جاء التركيز على دراسة الأثر المسيحي؛ للكشف عن هذه الغايات، وربط صلتها بالواقع المعيش.

أسباب اختيار الدراسة

إن اختياري لهذا الموضوع دون غيره كان لعدة دوافع، من أبرزها:

1. ما أثارته روايات الكاتب في نفس الباحثة من فضول لمعرفة سر تأثر الكاتب بالمسيحية، واستحواذها على جزء ليس بالقليل في أعماله رغم كونه مسلما.
2. عدم وجود دراسات سابقة مخصصة عن الأثر المسيحي في روايات حسن حميد، فكل ما كتب من دراسات، وأبحاث لم يطرح هذا الموضوع، أو يعالجه.
3. البعد الثقافي، والوطني، والديني الذي تناولته روايات حسن حميد إلى جانب أبعاد أخرى لكل منها غاياته.
4. الرغبة في تقديم رسالة نقدية ثقافية، تجعل الدارس للأعمال الأدبية يلتفت إلى قضايا حديثة تركت بصمة مميزة في التشكيل التكويني، وإعادة إنتاج الوعي.
5. تقدير أعمال الكاتب حسن حميد، والاحتفاء بهذه الشخصية الأدبية، والفكرية، والثقافية التي تستحق أن تدرس، وأن تأخذ حقها من الدراسة والتقدير.
6. الاهتمام الكبير الذي حظيت به الروايات على الصعيدين العالمي، والمحلي، خاصة الاهتمام بقراءة أعمال الأدباء الذين عاشوا غربة مكانية غير أن فلسطين بكل ما فيها بقيت حية تنبض في وجدانهم، وأعمالهم.

أما عن أهمية الدراسة فتتلخص بالآتي:

1. المسيحية جزء لا يتجزأ من الجسد الفلسطيني؛ وبالتالي وظف الكاتب الأثر المسيحي في أحداث كثيرة تأكيدا على ذلك.
2. توضح الغايات التي قصد الكاتب من ورائها إثراء النص بالأثر المسيحي، وتبرير سطوة المسيحية على مساحة لا بأس بها من كتاباته.

3. أفادت الرواية من الرموز المسيحية في توسيع مدارك الرواية، وأبعادها، فيقرأ القارئ الرواية كأنها لوحة متجذرة عن المنطقة في أبعادها الدينية.

حاولت الدراسة الإجابة عن هذه الأسئلة:

1. ما الغاية من استحضار الأثر المسيحي في روايات حسن حميد؟
2. كيف أثرت الشخصيات من خلال علاقتها مع المكان في مجريات أحداث الرواية، وتحقيق أغراضها؟
3. ما المرجعيات التي دفعت حسن حميد لتوظيف المسيحية في رواياته بهذه الصورة المكثفة؟
4. كيف استطاع الأثر المسيحي أن يعطي الروايات أبعادا جديدة على المستويين الشكلي، والمضموني؟
5. ما العلاقة بين توظيف الكاتب للنصوص المسيحية، والأبعاد الأخرى في رواياته؟

منهج الدراسة

اعتمدت الباحثة في دراستها على المنهج الوصفي التحليلي؛ لما له من أهمية في تحليل الروايات من جانبها المدروس، مستفيدة من المناهج الأخرى في بعض الأحيان.

الدراسات السابقة

لم تأت هذه الدراسة عبثا، ولم تولد من فراغ، وإنما بنيت على العديد من الأبحاث النقدية، والأدبية التي تناولت روايات الكاتب، والباحثة لم تعثر على أي دراسة تناولت الأثر المسيحي في روايات حسن حميد،إنما هناك دراسة درست بعض الروايات من جوانب موضوعية بعيدة عن موضوع رسالة الباحثة، وهي:

رسالة ماجستير بعنوان "الهوية والاغتراب في روايات حسن حميد": تناول فيها الباحث تجليات الاغتراب في روايتي " تعالي نطير أوراق الخريف، و" النهر بقمصان الشتاء"، وتحدث عن زيف الهوية الصهيونية، معتمدا في دراسته على المناهج التحليلية، والنفسية، والتقنيات السردية من استذكار، واستباق، ووقفة، ومشهد حواري، وغيرها.

وهناك مجموعة من الأبحاث التي درست روايات حسن حميد، وهي بعيدة عن موضوع الرسالة التي نحن بصدد إنجازها، وهي:

1. آلية السرد في رواية أنين القصب للروائي حسن حميد، للباحث: ياسين فاعور-اتحاد الكتاب العرب.
2. حسن حميد في مدينة الله: فرادة الأسلوب وتميز الإبداع، للباحث: يوسف جاد الحق –اتحاد الكتاب العرب.
3. الجسر المنتهك، والهوية المهشمة: رواية " جسر بنات يعقوب" لحسن حميد نموذجا وهو بحث للطالب: هايل محمد – وزارة الثقافة.
4. الشاهد الديني، والتاريخي بين العتبات والنص في رواية " جسر بنات يعقوب" لحسن حميد، للباحثة: حنان محمد موسى حمودة – مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الإنسانية.
5. "مدينة الله" وحسن حميد، للباحث: محمد خالد عمر.
6. المكان العلامة في رواية "مدينة الله"، للباحثة: فاطمة عيسى جاسم- جامعة الكوفة
7. "مدينة الله" بين سطوة الأمكنة، وسطوة الأيدلوجية، للباحث: محمد باقي محمد.
8. المفارقة الزمنية، ودلالاتها في روايات حسن حميد (مدينة الله، كنت هناك، الكراكي)، للباحثة: سهام ناصر، وآخرون.
9. رواية " الكراكي" تجليات الواقع السحرية، للباحث: نزيه بدور.

مع وجود هذه الأبحاث والدراسات، إلا أن الباحثة لم تجد فيها ما تطمح إليه، فقدمت هذه الرسالة ما هو جديد في البحث عن الأثر المسيحي في روايات حسن حميد الذي لم يتناوله باحث آخر مشفوعا بالأبعاد التوعوية، والأثر المحدث في نفس القارئ.

خطة الدراسة

مدخل عن الروايات المنتخبة في سطور، فعرضت الباحثة بشكل مختصر، وسريع الروايات المتناولة، وما أثارته من قضايا.

الفصل الأول: قدمت له بتمهيد من خلال المبحث الأول " المكان مفهوما وتطبيقا"، وفي المبحث الثاني فرقت بين الأماكن المسيحية المفتوحة، والمغلقة، أما في المبحث الثالث فناقشت دلالات الأماكن المسيحية، وانعكاساتها، وفي المبحث الرابع علاقة الشخصية في المكان المسيحي. في الفصل الثاني: أثرت فيه الرموز المسيحية على اختلافها، وكيف أدت رسالة الكاتب في الروايات المنتخبة. أما الفصل الثالث درست الحكايات المسيحية التي أدرجها الكاتب في رواياته المنتخبة، وربطها مع الواقع الذي أشار إليه من خلالها. وجاء الفصل الرابع بعنوان: " البعد التكويني، والتوعوي الوطني، والسياسي للأثر المسيحي في الروايات"، وأنجز من خلال ثلاثة مباحث. الخاتمة تناولت الباحثة فيها أهم ما خلصت إليه من نتائج.

الصعوبات

لا بد من الإشارة إلى وجود تحديات كثيرة واجهت الباحثة خلال البحث والدراسة، اقتربت أن تودي بها إلى اعتزال الكتابة النقدية، تمثلت بشح الدراسات التي يستند عليها، والبحث في ثقافة، ودين جديد مغاير لثقافة، وديانة الباحثة التي تجهل حقيقتهما، مع عدم تجاوب بعض الجهات التي لجأت إليها أحيانا.

ورغم ما واجهته إلا أنني أتمنى أن أكون قد وفقت في رسالتي، ولا يسعني إلا أن أحمد ربي جل علاه الذي مكني من إتمام هذه الدراسة.

الروايات في سطور

يكتب حسن حميد[1] عاشق فلسطين، والمفتون بها رواياته جاعلا من المتعة، والتشويق، والوظيفة والرسالة شرطا أساسيا لها، بتقنية تخصه وحده، وتميزه عن غيره، كما استطاع بسرديته تكذيب ادعاءات الصهاينة، وكشف تاريخهم المزور، وحقيقتهم البشعة، جاعلا من رواياته قوة تواجه الهجمات الصهيونية وتحاربها، مؤكدا بها على أسبقية الوجود الفلسطيني، وأحقيته في الأرض، والدفاع عن هويته.

أول الروايات المدروسة " جسر بنات يعقوب"، التي صدرت عام (1996)، وحصلت على جائزة نجيب محفوظ عام (1999)، بدأ الكاتب روايته بطريقة مغايرة عما هو معهود، قاصدا إيهام القارئ بأن الرواية ما هي إلا نصوص موروثة، وما الكاتب إلا أداة لنقلها إلى قرائه، فاستخدم تكنيكا خاصا، وعززها بهوامش، وتفصيلات، وتذييلات، وحواشي قدمت سرديات إضافية، وشروحات داعمة للنص، ومقوية له، تشد القارئ، وترسخ في ذهنه ما يدور فيها.

وتسرد الرواية مأساة الشعب الفلسطيني، وأطماع المستعمرين واليهود في بلادنا منذ قديم الزمان، مستندا على الدين والتاريخ. واتكأ حميد على المكان جاعلا منه خلفية للشخصيات والحكايات، فتدور أحداثها في قرية الشماصنة، ودير الراهبات. والرواية بملخصها هي حكاية يعقوب وبناته الثلاثة جوديت وميمونة ودينة، الذين استقروا في قرية الشماصنة بعد قدومهم من الشمال بائسين، وفقيرين معدمين،

---

[1] ولد الروائي الفلسطيني (حسن أحمد حميد حميد)، في قرية كراد البقارة عام 1955م، الواقعة في الشمال الشرقي من مدينة صفد في الجليل الأعلى شمال فلسطين المحتلة، بين بحيرتي الحولة وطبريا إلى الغرب من (جسر بنات يعقوب) على نهر الأردن.
لحسن حميد آثار إبداعية أدبية، تنوعت بين القصص القصيرة، والروايات، والدراسات النقدية، و كتب حسن حميد ست روايات، تحدث فيها عن موضوعات عدّة منها: عادات الشعب الفلسطيني الاجتماعية، وذاكرته الجماعية في أرضه السليبة، وهويته الوطنية، والمنفى والاغتراب، ونضاله ومقاومته للاحتلال الصهيوني، ومقدساته، وأمله في العودة إلى وطنه، منها: تعالي نطير أوراق الخريف، النهر بقمصان الشتاء، مدينة الله، جسر بنات يعقوب، كنت هناك، شارع خاتون خانم، الجرجماني، ناغوغي الصغير.
حاز الروائي حسن حميد على جوائز أدبية عديدة في مجال القصة القصيرة، والرواية منها: جائزة نجيب محفوظ للإبداع الروائي العربي، عن روايته (جسر بنات يعقوب) عام 1999.

فارين من كره العالم لهم، واشمئزازهم منهم؛ لدناءتهم، فيعقوب كان يستخدم بناتــه وزوجتــه لتحقيــق أغراضه، فحلوا رحالهم عند الجسر العتيق الذي أسموه فيما بعد جسر بنات يعقوب.

ولم يترك يعقوب بابا إلا استخدمه، فتحايل على الدين والناس، وسخّر مكره، ودهاءه ليصل إلى مبتغــاه، خاصة أن أطماعه لا تعرف حدودا ولا دينا ولا أخلاقا، كما باركته عجوز التقــى بهــا عنــد قدومــه، وأشارت عليه القيام ببعض الأفعال، ومن ثم التقى بسليمان عطارة، وطلب مساعدته ليتمكن مــن بنــاء الخان، وأعاد استخدام بناته كسلعة؛ لجلب النزلاء إلى الفندق، وبنى الجسر وأجبر المارين علــى دفــع الضرائب عند عبورهم، وجمع الكثير من المال. لكن لا السعادة تدوم ولا المال يدوم، فتأتي نهايته على يد أحد الأشخاص المخدوعين به، وبعد موته يهدم بيته، ويعود الجسر إلى حاله قبل مجيئه وبناته.

أما الثانية فهي رواية " مدينة الله" الصادرة في العام (2009)، والتي ترتكز على الرسائل التــي بعثهــا (فلاديمير) إلى أستاذه (إيفان) في روسيا، والذي بدوره لم يتلق أيا منها؛ بسبب وقوعها بحوزة (وديعــة عميخاي) التي كانت تعمل في البريد المركزي، فتحفظت عليها ولم تصل واحدة منها إلى (إيفان).

ويصح القول إنها رواية دينية، وسياسية، وواقعية، وتاريخية، تناولت الحديث عن أطهر بقــاع الأرض، ومهد الرسالات مدينة القدس، إلى جانب مجموعة أخرى من الأماكن الفلسطينية، فنتنقل معه بين المدن، والقرى، والأحياء، وأماكن العبادة، والأسواق، والحواجز. ويصف معاناة الفلسطينيين، وصعوبة حياتهم؛ بسبب ممارسات الصهاينة بحقهم، والمشقة التي يواجهونها يوميا عند تنقلهم بين المدن، وصراعهم مــع الجنود على الحواجز التي وضعوها.

كما أجاد الكاتب في حديثه عن السجون "الصهيونية"، ووصف أساليب تعذيب الأسرى، وعرض كل مــا سبق كان ضمن رسائل الزائر الروسي (فلاديمير) الذي جاء سائحا إلى فلسطين بعد أن أخبرته زوجتــه رشيدة الكثير عنها، لكنه لم يصدق شيئا إلا بعد زيارته لها، ولكن فات الأوان، فرشيدة ماتــت قبــل أن

يكتشف الحقيقة. وبالرغم من عدد صفحاتها الكبير، وكثرة العناوين الفرعية إلا أن أسلوب الكتابة اتسم بالتشويق، وجمع بين الواقع والخيال والفانتازيا، فأبعد الملل عنها.

وفي روايته الثالثة " أنين القصب" الصادرة في العام (2013)، يستهلها بقوله إن هذا الكتاب أشبه بسير ذاتية لأناس عاشوا أحداثا وأتعبتهم الحياة، فشكلت السير المادة الأساسية التي تقوم عليها الرواية. وصور فيها تهجير الشعب الفلسطيني من قبل اليهود المدعومين بدول عظمى، وكانت مليئة بحكايات يعتنق أصحابها المسيحية، الآمنة بعاداتها وتقاليدها، وطقوس أسواقها، وتحدث عن تشرد أهل الشماصنة، والحياة والويلات التي لحقت بهم بعد نكبة عام (1948)، فجمع فيها بين الحضور التاريخي والوطني، وجعل منها رواية القهر والظلم.

وأفصح في روايته الرابعة " الكراكي" الصادرة في العام (2019) عثوره على هذا الكتاب في صندوق جده إلياس الشمندوري " عبودة"، المقفل منذ حقبة من الزمن، فقد تعاهد أجداد عبودة على عدم فتحه، ولم يتجرأ أحد حتى جاء حسن حميد، وتمكن من خلال شخصيته "عبودة" فتح الصندوق، وقدم لنا ما بداخله.

يثير الكاتب في الرواية علاقة الإنسان بالمكان، وحاول الكشف عن طبيعة الحياة في قرية الصبيرات الواقعة في الشمال الفلسطيني، وهي حياة ريفية يطغى عليها التنجيم، والإيمان بالمعتقدات الغيبية، وحياة الكنيسة.

وتقوم الرواية على البعد الرمزي والديني والتاريخي والوجودي، والحكايات هي التي أقامت السرد وكونته، فمن حكاية هدلة وزوجها الذي ذهب للعمل ولم يعد، إلى حكاية عبودة، ومرضه منذ ولادته وعذابها معه، ثم حكاية الخال الذي جاب القرية مرات عديدة؛ بحثا عن الطفل؛ لتطويبه، و الزهروري الذي عشق فضة الغجرية، وحكاية حب عبودة وسفره؛ للبحث عن (ماريا)، وغيرها الكثير من الحكايات.

الفصل الأول

الأماكن المسيحية في روايات حسن حميد المنتخبة

المبحث الأول: المكان مفهوما، وتطبيقا

إن وعي الإنسان بمحيطه هو الذي يدفعه للبحث وراء ما يواجهه، وكذلك القارئ، فوعيه وفضوله يوجهانه للبحث عما وراء النصوص؛ فالعقل المثقف يرفض تقبل الأمور وأخذها كما هي، وإنما يسعى إلى التماس الحقائق، والدلائل الخفية. وقبل تحليلنا للمكان في روايات الكاتب حسن حميد نشير إلى أن التخييل القصصي، والخرافات، والحكايات الشعبية التي رافقت الإنسان بالفطرة منذ أن وجد تؤكد الاهتمام بالمكان، وتسلط الضوء عليه حتى العصور الحديثة، لكن الفارق أن الأنواع الأدبية الحديثة تحاول أن تستنبط المكان من الواقع المحيط.

وللمكان أثر كبير على حياة الكتاب، والأدباء، والشعراء منذ القدم، ولو عدنا للشعر الجاهلي لرأينا تعلق الشعراء بالمكان المسمى الطلل، ووقوفهم على آثاره، وبكائهم عليه، وهذا دلالة على الأثر السامي الذي يتركه المكان في النفس الإنسانية. ولم يحظ المكان في الروايات القديمة بالاهتمام النقدي على النحو الذي يحظى به الآن، وحدث ذلك عندما "جاءت مدرسة (آلان روب جرييه)، وحطمت الزمان كمقياس لمغزى الحياة، وأحلت المكان محل الزمان؛ لأن وجود الأشياء في المكان أوضح وأرسخ من وجودها في الزمان" (غرييه، د.ت، صفحة 9).

فالمكان في الرواية يتجلى حسب المشكلة الكبيرة التي يعاني منها البشر، ويتميز المكان في الرواية الفلسطينية بالحضور الدائم، والملحوظ، فهو نقطة الصراع عند الفلسطيني كاتبا، أو شاعرا، أو معلما، أو فلاحا، فما عاشه من نكبات، وتهجير، وتغريب، وفقدان للوطن جعله يتمسك بالمكان جاعلا من حضوره واجبا، فالأرض هي محور الصراع، وجوهره.

وأصبح للمكان الفلسطيني خصوصيته المختلفة عن غيره من الأماكن بعد نكبة (1948)، وبعد كل مرحلة سياسية، ونضالية عاشها الشعب الفلسطيني اتخذ المكان قيمة خاصة به، فالمكان قبل النكبة يختلف عنه بعد النكبة، وما بعد النكبة يختلف عما بعد النكسة، كما اتخذ طريقة تعامل مغايرة بعد اتفاقية أوسلو، ففي رواية " جسر بنات يعقوب" يعود زمن الرواية إلى القرن الثالث عشر الميلادي، أما رواية " أنين القصب" فتجسد معاناة الفلسطينيين في نكبة عام (1948)، ورواية "مدينة الله" راوح فيها بين زمن المسيح عليه السلام، وبعد نكبة (1948)، وبعد نكسة (1967)، أما في روايته " الكراكي" فالزمن يقع بين مرحلتين هما قبل النكبة، وبعد النكبة. وتباعا لذلك فإن لكل رواية أماكن خاصة مثلت محور الحديث، تتعلق بالفترة التي تحدث عنها بطريقة تعاصر أحداث تلك المرحلة.

فالمكان عند حسن حميد يخلق النص، ويخلق الأحداث، والتفاعلات، وفي حديثه عنه، وسرد مجريات أحداثه يتكئ على التاريخ بشكل كبير، ويربط بينه وبين الحاضر بحلقة وصل لا انقطاع فيها؛ محاولا استعادة الماضي بكل مجرياته واستحضار المكان يوازيه استحضار الذكريات ويصفه وصفا دقيقا باثا فيه روح الحياة، ويألف المكان كما المكان يألفه، فيتحدان معا.

ومن اللافت للانتباه أنه استخدم الأماكن بمسمياتها التاريخية، واهتم فيها بشكل مكثف؛ لإثبات أحقية الفلسطينيين في أرضهم، وأنهم سكانها الأصليون، وأن اليهود ما كان بطشهم إلا لتزييف هذه الحقيقة، وطمس معالم عروبتها.

انطلاقا من ذلك فإن دراسة جمالية المكان، ودلالاته بأطره الخاصة وانفعالاته بحاجة إلى وقفة، وأن يحسن تناولها من قبل الدارسين والباحثين؛ لذا كان من الضروري أن تتوقف الباحثة عنده، وتعالج ما جسده من دلالات مختلفة تحيا في خضم تفاعل المكان مع الزمان، والأحداث، والشخصيات، والحوار، الأمر الذي ولد تساؤلات عديدة كانت دافعا لكتابة هذا الفصل، وأهمها:

- ما هو المكان؟

- ما أنواع الأماكن المسيحية التي استخدمها الكاتب في رواياته المنتخبة؟
- كيف وصف الكاتب هذه الأماكن، وأطرها في رواياته؟
- ما هدف الحديث المطول عن الأماكن المسيحية، والإسهاب في تفاصيلها؟
- ما طبيعة العلاقة بين الأماكن، والشخصيات التي تقطنها، ومدى تأثير كل منهما على الآخر؟

وإجابة ما سبق ستكون ضمن قراءة الباحثة الأدبية والنقدية للمكان في الروايات المنتخبة، وهي اجتهادية تأويلية حسبما ترى من تفاعل الرواية مع عناصر تكوينها كافة، ومجريات أحداثها المنشأة لها، وخصوصية كل مكان أثار الكاتب ذكره، وعقد عليه الكثير من القضايا والقصص والحكايات وغيرها.

ويرى (غاستون باشلار) الذي ربما يعود إليه أول تعريف للمكان في النقد بأنه "ما عيش فيه لا بشكل وضعي، بل بكل ما للخيال من تحيز، وهو بشكل خاص في الغالب مركز اجتذاب دائم" (باشلار، 1984، صفحة 179). ويختلف المكان الأدبي عن المكان الحقيقي في الحدود على أرض الواقع، وهو ما أشار إليه عبد الملك مرتاض باعتبار أن المكان الأدبي" عالم بلا حدود، وبحر بلا ساحل، وليل دون صباح، ونهار دون مساء، إنه امتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات، وفي كل الآفاق" (مرتاض، 1998، صفحة 57).

ويضيف ياسين النصير بخصوص ذلك رأيا آخر يتضح في قوله: "عندي يشكل المكان في الرواية الأرضية التي تشد جزيئات العمل كله فهو إن وضح وضح الزمن الروائي، وإن درس بعناية فهمت الشخصية، وإن تناوله الروائي بصدق تاريخي وصدق فني مكن عمله، وعكس ذلك لن يصبح المكان بين يدي كاتب قليل التجربة، ضعيف المخيلة، فاقد الإحساس بالأشياء جيد" (النصير، 1980، صفحة 6).

من ناحية أخرى يجب أن يكون المكان "عاملا وفاعلا في بناء الرواية، وإلا أصبح كتلة شحمية لا تضيف للرواية إلا الترهل؛ ومن هنا كان المكان يلعب في بعض الروايات دور البطولة وليس عنصر

بطالة" (النابلسي، 1994، صفحة 275). وتتعدد عناصر الرواية وتختلف عن بعضها، ولكل عنصر أهميته التي ينفرد فيها، ولا يمكن الاستغناء عنها عند كتابة أي رواية، كما يحتل موقعا مميزا بين عناصرها؛ كون الزمان والأشخاص لا يمكن أن تدور دائرتهما، أو أن يتم التفاعل بين عناصر الرواية إلا ضمن مكان محدد، فالمكان هو العمود الفقري الذي تقوم عليه الرواية.

وهناك ما يمنح المكان أهميته هو عنصر الحيوية، وتفاعله مع باقي مكونات الرواية؛ لذلك نستطيع القول إن المكان هو أرضية السرد ومركزيتها؛ فالمكان ليس خلفية تقع فيها الحوادث الروائية، بل هو عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر الرواية، وبتفاعله مع العناصر الأخرى يشكل بعدا جماليا قيّما، يتعالق المكان مع باقي عناصر الرواية بطريقة نستشف منها صعوبة استقلاليته بحد ذاته.

نتيجة لذلك اهتم الكتاب بالمكانية في العمل الفني، وباتت أعمالهم وكتاباتهم تعالج أو تطرح قضايا ذات علاقات مكانية حسب الرؤية التي يراها هذا الكاتب أو ذاك، خاصة " أن العمل الأدبي يفقد خصوصيته وأصالته إذا فقد المكانية" (عبيدي، 2011، صفحة 6)، بالتالي للمكان أهمية بوصفه ملموسا؛ "إذ باستطاعة الأديب أن يوظفه لتجسيد الأفكار والرموز والحقائق المجردة، وتقريبها من الواقع" (شلاش، 2011، صفحة 248).

أما عند الناقد الأدبي فالمكان" ليس بناء خارجيا مرئيا، ولا حيزا محدود المساحة، ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير، والمحتوي على تاريخ ما، أو المضخمة أبعاده بتواريخ الضوء والظلمة" (بسام، 2007، صفحة 273)، فنرى أن المكان يسهم في تشكيل الرواية، فهو ليس حدودا جغرافية، ولا لوحة فنية مرسومة بريشة فنان، وبالعودة إلى الروايات المدروسة في هذه الدراسة نلاحظ أن لحسن حميد أسلوبه الخاص في التعامل مع المكان وما يجري فيه، وما ينشأ عنه من هواجس في ذاكرة القارئ، فنراه عاشقا للمكان، متمسكا به، جاعلا منه محركا أساسيا للانطلاق تعبيرا عن مأساته الكبرى، ومأساة شعبه.

وفي كل رواية من رواياته ينطلق من مكان رئيس مركزي، ويتفرع منه إلى أمكنة أخرى لها حضورها الديني، والتاريخي، والتراثي، وقدسيتها الوطنية، كما أبدع في استخدام ألفاظ منحت الوصف إيحاءات دلالية لها عمقها، فكان المكان في الروايات وجوديا؛ بمعنى أنه أوجد العمل الروائي، وكان عاملا تكوينيا ذا قيمة بالغة الأهمية من دونه ما كان للروايات وجودا وحضورا.

إن حسن حميد بأسلوبه الخاص في التعامل مع المكان، ونقله القارئ من مكان لآخر يخلق نوعا من التواشج بين القارئ وأماكن تنقله، ويريد من ذلك أن يترك المكان أثره، ويجعله وسيلة تعبير عن مأساته الكبرى، وهناك بعض الأمكنة التي استأثرت اهتمامه أكثر من غيرها، فمثلا اهتم بالأماكن المسيحية وانتقاها من بين جميع الأماكن التي تصادفه في سفره وتنقله في الدروب وبين المدن والقرى، وخصها بالوصف والتحليل والتقديس؛ وقد يكون هذا التمييز؛ لخصوصيتها في الديانة المسيحية، أو لأنها تعني شيئا في قضيته الوطنية، وفي أغلب الأحيان يجتمع السببان ويصبان في محور واحد، فمثلا حظي " جسر بنات يعقوب" و " الدير" بالحضور الدائم في رواياته المدروسة، ولاحظنا اهتمامه المتكرر بقرية الصبيرات وطبريا والقدس وبيت لحم والخالصة والرامة و الشماصنة، وغيرها من المدن والقرى التي لها أصول مسيحية.

وعند التعمق بروايات الكاتب نكتشف أن المكان شغل حيزا لا يمكن تجاوزه، وأن رواياته حافلة بالأماكن التي اكتسبت جمالية خاصة من خلال تقديم الكاتب لها، فلحسن حميد أسلوبه في التعامل مع المكان، وما يجري فيه، وما ينشأ عنه من هواجس في ذاكرة القارئ، وبذلك يتسم الرمز المكاني بسمات معينة تجعله مهيمنا، وركنا أساسيا تقوم عليه الرواية، خاصة تلك المعنية بقضية فلسطين وأرضها.

كما نلحظ أن أكثر الأماكن التي أشار إليها أصبحت للأسف محتلة، ومن الصعب زيارة أغلبها إلا بتصاريح، وبطاقات ممغنطة، وبحضورها أخذ الكاتب القارئ في جولة فأصبح يزورها في مخيلته، ويتنقل بينها معوضا نفسه عن حرمانه منها، وحضورها القوي يدل على أن كل المكان الفلسطيني يشكل

نقطة تأزم عند حسن حميد؛ وهذه ردة فعل طبيعية يتفق فيها مع كثير من الكتاب الفلسطينيين الذين ذاقوا مر الغربة، والتهجير فأضحت فلسطين بكل شبر فيها العالم برمته في أدبهم.

المبحث الثاني: الأماكن المسيحية المفتوحة والأماكن المسيحية المغلقة في الروايات المنتخبة

المطلب الأول: الأماكن المسيحية المفتوحة

هي متنفس الشخصية، ومساحتها الواسعة التي تتحرك فيها، وتشعرها بقدر من الحرية، وسميت بهذا الاسم؛ لأنها" تكون مفتوحة على الخارج، أماكن اتصال وحركة، حيث يتجلى فيها بوضوح الانتقال والحركة، وهي بالطبع كل الأماكن المعادية لأماكن الإقامة، والتي يتسلل معها أقسام جدلية بين الداخل والخارج، وإن كانت في حد ذاتها متفرعة" (دحماني، 2008، صفحة 88). والأماكن المفتوحة عند حسن بحراوي" مسرح لحركة الشخصيات وتنقلاتها، وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة" (بحراوي، 1990، صفحة 40).

احتلت الأماكن المفتوحة مساحة واضحة في روايات حسن حميد، منها: سوق الخالصة، حيث قال عنها: "هي ذي الخالصة، هي ذي أول مرة أذهب فيها إلى السوق؛ من أجل أن أجلب زيت الدير. كنت قد سمعت الكثير عن السوق، عن اتساعها وكثرة الخلق فيها، وشدة الازدحام، وكثرة البضائع" (حميد، 2021، صفحة 194)؛ فسوق الخالصة هو المكان المفتوح الذي يخرج إليه ساكن الدير؛ ليجلب منه ما يلزمه، وهو كبير يتسع لكل شيء، وفي اتساعه سعادة، وحياة أخرى يجدها ساكن الدير فتشدوا إليه روحه، ويرغب تكرار زياراته؛ ليكتشف ما خلف أسوار الدير، وحياته المغلقة فيمسح غبار الانغلاق عن عقول ساكنيه، ويكتشفوا حياة أخرى خارجه مغمورة بزهوها، ورفاهيتها.

وتحدث عن الحي الأرمني، قائلا: " بدت بيوت القدس تتجلي أمام ناظري بيتا بيتا، وكانت حجارتها الوردية تشع نورا، لكأنها دلاء وأحدها يصب الماء في الآخر، كيفما تلفت أرى جمال البيوت، والأشجار، والطرق الندية، والشوارع التي أطلقت ناسها، والمحال التي فتحت أبوابها، والأطفال وهم في

جريانهم البهي كالأنهار" (حميد، 2021، صفحة 710)، من حديثه رسم لوحة فسيحة مفتوحة زاخرة المعالم، نابضة بالحياة والجمال تشع نورا، وتتكامل كل لوحة من لوحاتها مع الأخرى مشكلة صورة منقطعة النظير.

ويقف النص عند تفاصيل الأماكن المفتوحة، ويصف جمالية طبيعتها بطريقة فنية تجعله يتفوق في الوصف، فمثلا يصف الساحة المحيطة بالدير وصفا دقيقا، ويسهب في ذلك قائلا: "وبالقرب من الدير مهاجع للحيوانات، وساحة مبلطة بالأحجار السود الرقيقة،ومستودع للحبوب والتبن، والأدوات الزراعية، وعربة خشبية واسعة، وعدة براميل، وسياج من الأشواك، وبغال وأغنام، وماعز وكلاب، ووكيل ذو جسم ممتلئ... يزرع الحواكير الملاصقة للدير بالنعناع واليانسون، والحبق، والخضار، والورد" (حميد، 2021، صفحة 18)' فكأن لكل مكان مغلق مساحة حرة تحيط به، تلقي عليه بظلالها، وتحفه بنسمات حريتها، فيتعانق المغلق مع المفتوح، ويكمل كل منهما الآخر.

ثم يأتي بصورة مغايرة للمكان المفتوح الذي عهدناه سابقا، عند وصفه لطريق القدس أريحا قائلا: " لقد مررت بطريق القدس–أريحا مئات المرات، وفي كل مرة لا يفارقني الشعور بالخوف، وأتساءل كيف مشاه سيدنا من قبل، وهو على هذه الدرجة من الوعورة والوهرة، فالتلال المخيفة، والصخور الشيطانية، ورجوم الحجارة، والأشواك المكومة هنا وهناك، والمتطايرة والمتدحرجة تحيط به حتى تكاد تطبق على من فيه" (حميد، 2021، صفحة 492)' فيصبح هذا الطريق الواسع مليئا بالمعاناة والوجع، ولكل من مر به ردة فعل قوية تجعله يتخيل مستنكرا مرور سيدنا يسوع المسيح فيه؛ لهوله وشدة مهابته، فمعالمه مخيفة، وكل مكوناته توحي بالألم، وتوجع العقل قبل القلب، ويغدو المكان أكثر ضيقا واختناقا رغم فساحته، وبذكره لهذا الطريق برهن أن المكان بانفتاحه وسعته قد يكون أحيانا مصدرا للعذاب، لدرجة تجعلنا نتمنى لو كان مغلقا فلا يمره أحد، ولا يستشعر ما مر به المسيح؛ لصعوبته وقسوته وشدته.

وبانتقاله للحديث عن المكان الرحب المحيط بكنيسة القيامة يبين أن هذه المساحة كبيرة، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على قدمها، وقدم الديانة المسيحية، وبسط وجودها كونها أسبق من الإسلامية، وأن ما من أحد يجرؤ على إنكار الوجود المسيحي الراسخ في القدس الشريف، فيشير إلى محيط كنيسة القيامة قائلا: "إلى يميني معبد (مار يوحنا) الأرمني، وإلى جواره معبد (مار ميخائيل) القبط، صرح آخر من الرخام والمرمر، وإلى يساري برج الأجراس الخرافي، أجراس نحاسية كبيرة وواسعة مثل الدلاء، وحبال غليظة، وأخشاب عريضة بلون الجلد المدبوغ، تحيط بها فلا تترك لها سوى نوافذ هنا وهناك، وإلى الجوار معبد الأربعين شهيدا، وخلفه مباشرة بطريركية الروم، ما أكثر الداخلين إليها، أبنية متداخلة، مشدودة إلى بعضها بعضا، وأخرى حانية على بعضها بعضا، وأمامي تتبدى سلالم الجلجلة الحجرية النظيفة، فأدخل عميقا وأنا في حيرة من أمري، لا أدري إلى اليمين أو إلى اليسار، وما الذي أراه أولا، وما الذي أراه تاليا" (حميد، 2021، الصفحات 453–454).

ويذكر الكثير من المدن التي قد يغيب عنا كونها جزءا من مسير يسوع، ومنها طبريا التي ذكرها على لسان الأب طنوس في رواية الكراكي: " الأب طنوس قال: إن طبريا سميت طبريا؛ لأن آخر فتاة اختتمت مشهد رمي الفتيات الجميلات كل سنة في البحيرة كان اسمها تبرا وأبوها اسمه جبارة عواد، وقد تحول اسم تبرا إلى اسم طبريا، وقد أخذت البحيرة والبلدة اسمها، وهذا مكتوب في كتابنا" (حميد، 2021، صفحة 842).

ويطلق عليها بعض المسيحيين اسم بحيرة يسوع؛ "لأن المسيح يسوع مشى في مياهها(متى،6-45)، وأخمد فيها العاصفة (متى، 8-23)، وبأمره ألقى الرسل الشبك لصيد السمك، فحصلوا على صيد وافر (و5-1)، وفي عدد من المدن حولها بشّر برسالته السماوية" (خوري، 1997، صفحة 155). والسبب في قداسة طبريا عند اليهود، وبعد فشل ثورة بركوبا ضد الرومان في الربع الأول من القرن الثاني للميلاد قامت القوات الرومانية بإجلاء اليهود عن مدينة أورشليم، فرحلت جماعات كبيرة إلى طبريا،

وسرعان ما انتقل المجلس الأعلى لليهود المعروف باسم السنهدرين[1] إلى طبريا فأضحت المدينة بمثابة عاصمة الأمة اليهودية الجديدة (جريدة اليوم السابع، 2021).

واختيار بحيرة طبريا، وتردد ذكرها في رواية " الكراكي " مثلا يحمل معاني حب عميق، واشتياق كبير للوطن المسلوب، ولا سيما أن أغلب الأحداث تدور فيها، وفي ذلك تبصير بهويتها المسلوبة، وتأكيد على عروبتها وفلسطينيتها، وإعادة ملامحها التاريخية إليها، خاصة أنها كانت دالة على تعايش مميز للديانات في فلسطين، وتسامح منقطع النظير، وشاهدة على كثير من معجزات السيد المسيح (حنا 6:23)[2] الذي قابلوه بالرفض والخذلان،فحاول اليهود قسرا محو كل ما يشير إلى تاريخها.

المطلب الثاني: الأماكن المسيحية المغلقة

عندما نصف مكانا بأنه مغلق فإننا نعني الانعزال عن العالم الخارجي الذي خلف الجدران والأسوار، فهي الأماكن التي "تكون مساحتها محدودة، وهي أماكن إقامة الشخصيات"، والمكان المغلق هو: "مكان العيش والسكن الذي يأوي الإنسان إليه بإرادته أو إرادة الآخرين، لذا فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية" (عبيد، 2011)، وتخضع الأماكن المغلقة لسلطة تسيرها "فتشعر الإنسان أحيانا بوطأة الحياة وحصارها له" (شوابكة، 2012، صفحة 24) جاء الكثير منها في الروايات المنتخبة، مثل:

[1] السنهدرين: هو مجلس اليهود الأعلى الذي حوكم أمامه السيد المسيح ورسله، كان مجلسا أرستقراطيا يضم سبعين أو اثنين وسبعين عضوا، ويتألف من ثلاث فئات، هم: الكهنة والشيوخ والكتبة. يعقد بناء على ما جاء في التلمود في حرم الهيكل، وهناك رأيا آخر يقول إنه كان ينعقد في الجانب الشرقي لجبل صهيون على مقربة من الهيكل (كتاب الكنيسة المسيحية في عصر الرسل pdf، الأنبا يوأنس أسقف الغربية، 18- السنهدرين).

[2] يتحدث الإنجيل عن أعجوبة الأرغفة التي حصلت في طبريا: " السفن وصلت إليهم من طبريا بعد أن كانوا في موضع قريب منها أكلوا فيه الخبز وشكروا الرب.

أولا: كنيسة الأرثوذكس[1] في الخليل

يعود بنا حسن حميد إلى فترة تاريخية قديمة، مشيرا إلى وجود كنيس مسيحي في مدينة الخليل، ويتحدث عنها قائلا: "واحدة من المآذن قريبة جدا من الكنيسة التي غادرناها في الجهة المقابلة، لكأن المئذنة مثبتة فوق حائط الكنيسة، أو لكأن قبة الكنيسة بصليبها النحاسي اللماع مثبتة فوق حائط المسجد مباشرة... ثمة دعامات باتونية تسند حيطان المسجد، تبدو وكأنها جبلة الباتون قد سالت من أطراف البناء، ولم تتوقف إلا عندما أوقفها الدرب... هذا البناء الكبير أقيم قرب المغارة التي اشتراها النبي إبراهيم عليه السلام؛ من أجل أن يدفن فيها زوجته، وقد كان المكان منذ القديم معبدا تقام فيه الصلوات، كان كنيسة، ثم صار مسجدا، ثم عاد كنيسة، وهكذا إلى أن صار على ما ترونه اليوم" (حميد، 2021، صفحة 518)؛ وبذلك أحيا الكاتب كنيسا مسيحيا وجد منذ القدم في خليل الرحمن، ومن التلاصق بين الكنيسة والمئذنة أراد توثيق سماحة الدينين وأخوتهما.

ثانيا: الدير

كون الدير مكانا مغلقا يعني أن من فيه خاضعون لقوانين، وأطر معينة تحكمهم، لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها، وقد احتفى حسن حميد بالدير احتفاء كبيرا، جاعلا منه مكونا روائيا أساسيا، وتعدى كونه مجرد مكان للعبادة، ونبصر في كثير من المواقف غياب الوصف السطحي الجزئي، وعرض تفاصيل دقيقة عما بداخله، وهذا هو الذي يخلق المكان، فيصف الدير على لسان عبودة قائلا:" وصلت إلى الكنيسة، كانت ملأى بالناس، فانتبهت إلى أن اليوم هو (عيد البربارة)، ولا بد من أن أمي قد جاءت إلى هنا، فها هي الشموع الموقدة تبدو أقمارا وهي تنير جنبات الكنيسة، وها هي جرار الزيت بعضها يسند

[1] كنيسة الأرثوذكس: تقع إلى الغرب من مدينة الخليل، حوالي كيلو مترا واحدا، يوجد دير، ومنزل، وكنيسة تخص الروس الأرثوذكس، مخصصة على اسم الملائكة الثلاثة، شيدت سنة 1871، توجد أمامها شجرة بلوط أو بالأحرى ساق شجرة بلوط هرمة، يعتقد أن عمرها يناهز ألف سنة، إلا أن الحفريات التي جرت في رامة الخليل أثبتت عدم صحة هذا المكان الروسي، خاصة أنه يحمل اسم "بلوطة السبطة " والتعارف عليه من تقليد قديم أن العذراء مريم أثناء هربها في طريقها إلى مصر جلست هنا تأخذ قسطا من الراحة، لذلك دعي السبطة. (خوري، 1997، صفحة 99)

بعضها الآخر، والناس مشدودون إلى الموعظة، والرعاة مثل أعمدة النور وقد سيجتهم الأبصار، وفوقهم عرّشت الترانيم والابتهالات والتلاوات..." (حميد، 2021، صفحة 873).

فالدير مكان عبادة، وعادة جميع أماكن العبادة ترتاح لها النفوس، وتستأنس بها القلوب، خاصة أن الارتباط بها يكون روحانيا، فالدير كان في كثير من المواقف ملجأ يفرّ إليه من الهموم والذنوب والخطايا، ورأيناه فيما بعد ملجأ للثوار فلم يقصر الكاتب دوره على العبادة، وإنما أشركه في الهم الوطني والنضالي، فجاء في رواية "أنين القصب": " لم يعد مجيء الثوار إلى الدير مفاجئا لنا، لقد اعتدنا عليه، منذ سنوات بعيدة، إن كنا قادرين على إخفائهم فلنفعل، وإن كنا قادرين على التغرير بدوريات الإنكليز فلنفعل أيضا، المهم أن ننجد هؤلاء الثوار، ونكون معهم على الدوام، وأن نقابلهم بالمحبة في كل الأوقات، ألا نتركهم صيدا سهلا للإنكليز وعصابات اليهود" (حميد، 2021، صفحة 312)' وبذلك أبرز ولو قليلا مما قدموه خدمة للقضية في ضوء غياب الحديث عن دور أماكن العبادة المسيحية فيما يتعلق بالهم الوطني، والذي في أغلبه غياب ممنهج، ومتعمد؛ لإبعاد أعينهم اليوم عن القضية وعدم تبصيرهم بما فعلوه في الأمس.

ثالثا: قبر سيدنا

الذي أثر بحسن حميد، فيقول: "هذا هو القبر، هنا وفي الجهة الغربية من الكنيسة ساحة دائرية مقابلة للساحة الدائرية المماثلة لها في الجهة الشرقية من الكنيسة، هنا مسار وسيع مبلط بالحجارة السوداء، وفي وسطه القبر المقدس، يا لهذا البيت الذي حوى جثمان سيدنا لأيام ثلاثة، يا لهذه الوحشة المنارة بالشموع، ويا لهذه الحيطان المزينة بالرسوم والحافة بالقبر لكأنها بستان. هنا وحول القبر، يتصاعد بكاء، وتعلوا نهنهات، وتتداخل تمتمات، وأسى يسيل، هنا مشهدية الظلم، هنا دروبها وآلامها، هنا اجتماع الرجاءات، هنا الحزن العميم... أعمدة رخامية طوال وعالية تواقف القبر وقفة الشهود، إلى الجوار هيكل مريم المجدلية... لكأنها الآن تبدو لي وهي في جثوتها تبكي سيدنا" (حميد، 2021، صفحة

456)[1] فاستحضار خصوصية قبر يسوع، وهيبته، والتعبير عنه بإحساسه الذي شاركه مع القارئ جعل منه رمزا مقدسا لا يقبل التقليل من شأنه، أو الاعتداء عليه، أو السماح لهم بتهويده.

رابعا: عتبة الخلاص

وأثناء المسير باتجاه كنيسة القيامة مرّ (فلاديمير) ورفيقه بعتبة الخلاص، فكتب إلى صديقه: "هنا العتبة الفاصلة بين الجسد والروح، العتبة التي يسمونها عتبة الخلاص، عند العتبة، وقرب الدرجات الحجرية بدت لنا كنيسة القيامة بحيطانها النورانية، ومدخلها الوسيع، وأشجارها وحدائقها، وساحاتها، وقبابها، وصلبانها النحاسية..." (حميد، 2021، صفحة 452).

خامسا: المغارة الزجاجية

يواصل السائح ورفيق رحلته سيرهما، ويدخلان المغارة الزجاجية مرورا بالدرج الخشبي، وعن ذلك يقول: "وحين جاء دورنا هبطنا الدرج الخشبي المزدوج، فجهته اليمنى تأخذ الناس إلى الداخل، وجهته اليسرى تعود بهم إلى الخارج. بدا الدرج منارا بقوة، وضوء بهّار جدا، كأنه النار يشع في أسفله تماما... يا إلهي، ما هذا؟ وإلى أي شيء يدير المرء بصره؟ فهذه الحيطان فجوات، ونوافذ، وأقواس صخرية شفيفة ملأها الضوء بالحضور، إنها مرايا من الزجاج، نكاد نرى أنفسنا فيها بكل الوضوح والتجلي، وهذا السقف المقوس كنصف القمر مضيء ومشع، ونتوءاته البلورية دانية تكاد تلامس رؤوسنا، نرفع أيدينا إليها، نلمسها إنها بلور حقيقي أو ماء تجمد للتو، أو خيوط من الفضة الصافية، وهذه الأجران الدانية والموزعة هنا وهناك زجاج أبيض يميل إلى زرقة خفيفة، وهذه نتوءات صخرية على شكل طيور، وتلك صخور واقفة لكأنها شياه أو معيز كلها تضيء وتشع..." (حميد، 2021، صفحة 497).

سادسا: داخل الكنيسة

وبالدخول إلى الكنيسة شعر فلاديمير بالاندهاش لما رأى، فقال: "ما أدريه حقا هو أنني وجدت نفسي داخل الكنيسة، لكن كيف دخلت! لا أدري! فابتهجت روحي وأنا أرى الأيقونات النداهة، والكراسي الذهبية، والشموع المنارة، والسقوف الزاهية" (حميد، 2021، صفحة 768).

سابعا: معبد مار يوحنا[1]

كلمّا تجوّل فلاديمير برفقة مرشده مرّا بأماكن مسيحية جديدة، وكان المعبد واحدا منها، وعنه يقول:" إلى يميني معبد مار يوحنا الأرمني، وقد التف حوله بعض المؤمنين الأرمن، امرأة تقف في المدخل، وبيدها حقيبة، تقول للقيم معي شمع، وزيت، وزيتون، وزعتر، وورق طيون... جئت بها من أجل مباركة الصلاة، وطلب الرضا والمغفرة، والقيّم يبش في وجهها، ويدعوها إلى الدخول" (حميد، 2021، صفحة 453).

كلّ الأماكن المغلقة التي ذكرناها آنفا ليست مجرد حجارة مصفوفة تحيط بها أبواب تغلقها، إنما تحمل كثيرا من المشاعر، والعواطف، والانفعالات والشاعرية، فمن البديهي أن تكون ملاذا، ومسكنا، وملجأ حنونا آمنا يحتوي، ويحتضن من يدخل إليه، وقد تحقق هذا الأمر بشعور الانتماء الذي ينتاب من يدخلها، وبروح السيد المسيح التي تحلق حولها، فبات مسكنا آمنا للأرواح الهالكة المتعبة، ثم إن غربة الشاعر هي التي حرمته زيارة هذه الأماكن؛ مما فرض عليه المرور عليها، ووصفها بتريث يتيح للقارئ رسم ملامحها، واستعادة صورتها ولو في مخيلته، وفي ذلك إشارة مهمة، ومأساوية في آن واحد قصد فيها الكاتب نقل خيال القارئ من الحقيقة التي كانت واقعا اعتياديا معيشا إلى واقع مغاير أليم كله بشاعة، وحرمان ولم يعد بمقدور أحد التجول فيها كيفما يشاء، ومتى يريد، فقد أضحى كلّ ذلك بحاجة إلى موافقة إسرائيلية، وتصاريح تتيح للزائر بموجبها زيارتها، وبمدة محددة بالتاريخ والساعة.

[1] معبد مار يوحنا: يخص الأرمن يشاهد في داخله فوق المذبح قطعة عامود يظن الأرمن أنها جزء من العمود الذي جلد عليه السيد المسيح بالسياط، وإلى جانبه معبد مار ميخائيل حيث يقطن هناك الرهبان الأحباش. (خوري، 1997، صفحة 21).

المبحث الثالث: دلالات الأماكن المسيحية

تحدثنا سابقا عن المكان بشكل عام، وأدركنا أهميته في الرواية العربية، ولاحظنا انعكاس ذلك في روايات حسن حميد، خاصة أنه اعتنى بالمكان بشكل فريد، وحملت الأماكن عنده أبعادا دينية، ووطنية، وجغرافية، وتاريخية، وبدا عشق حسن حميد للمكان وتمسكه به واضحا، فالمكان يعيش فيه، ويحل معه أينما حل، وهذا بطبيعة الحال ينسجم مع حنينه إلى وطنه، والمعاناة الفعلية التي عاشها في غربته.

ولم يذكر الأماكن في متن رواياته فحسب، بل افتتح الروايات، وبعض فصولها بأسماء الأمكنة، وهذا يعد بمثابة بوابة تتيح للقارئ الدخول إلى عالم الرواية التي بين يديه، ويجعل القارئ يدرك قيمتها التي وصلت إلينا من خلال عرض الكاتب لها، ومن هذه العناوين رواية "جسر بنات يعقوب"، ورواية "مدينة الله"، وهما من ضمن الروايات الأربع المدروسة، وتحمل هاتان الروايتان إشكالية مكانية أساسية في الصراع الفلسطيني الصهيوني؛ حيث كانتا وما زالتا بمثابة شاهد على ما حلّ بالأمة العربية والفلسطينية على وجه الخصوص، وفي روايات حسن حميد يذكر الأماكن المسيحية، ويتناولها مرارا في أكثر من موقف دون أن يخل بجماليتها، أو يفقدها قيمتها.

إن الحديث عن الأماكن التي جاءت في روايات حسن حميد الأربع المنتخبة "جسر بنات يعقوب، ومدينة الله، وأنين القصب، والكراكي" يتطلب جرأة وثقافة واسعة، وقراءات كثيرة؛ لأن غالبية الأماكن المتناولة في رواياته مسيحية، وتم انتقاؤها بعناية كبيرة، ودقة فائقة، وتناولها في الروايات لم يأت من فراغ، و إنما جاء توظيفها جادا بدلالاته، وانعكاساته، ورمزيته؛ " فكل روائي أو فنان يحثّ نفسه جاهدا لخلق آفاق مكانية تسوق القارئ إلى عوالمها السحرية، سواء أكانت مألوفة أم غير مألوفة، فليس ثمة رواية بلا مكان" (عدوان، 2005، صفحة 27).

وفي حديثه عن هذه الأماكن يريد حسن حميد من القارئ أن يغوص في مكنوناتها وتفاصيلها، حينها لا يمكنه أن ينهي قراءته إلا وقد علق بذهنه الكثير عنها، وفتحت أمامه آفاقا أخرى يسعى إلى معرفتها،

فلكل مكان تناوله الكاتب رمزيته، ودلالته المختلفة رغم أنها جميعا تدور في فلك واحد، ووظفت خدمة لقضية واحدة.

من ناحية أخرى تدل إشارة الكاتب إلى هذه الأماكن على حبه لها، وتعلقه بها؛ فحاول بطريقته الفنية عرضها، وجمع بين الأماكن الأدبية المتخيلة[1] والأماكن الواقعية؛ فمثلا جاء بقرية الشماصنة على سبيل خيال الكاتب، وبناء على ما جاء في الرواية فإن قرية الشماصنة تقع إلى الشمال الغربي من طبريا، وفي ذلك يقول الكاتب: "وفي الكتاب تاريخ حياة المهاجر يعقوب وبناته وأخبارهم، وقد عاشوا بجوار الجسر العتيق المبني على نهر الأردن، والذي عرف فيما بعد بجسر بنات يعقوب بالقرب من قرية الشماصنة (التي كان أهلها يتكلمون اللغة الآرميّة) الواقعة إلى الشمال الغربي من قرية طبريا المعروفة ببحرها الواسع، ومناخها الدافئ، وأهلها اللطفاء" (حميد، 2021، صفحة 15).

وفي موضع آخر يقول: " في أعالي الجبل المشجر، المطل على قرية الشماصنة كانت مهمة الدير العتيق، تطل مثل الشمس من بين الأشجار الكثيفة التي لفتها من الجهات كلها بحنان، وخضرة، وهفهفات أنسام بليلة" (حميد، 2021، صفحة 7).

أما باقي الأماكن فكانت واقعية، ما زالت موجودة في فلسطين التاريخية، فذكر القدس، والخليل، وأريحا، والناصرة، ولبنان وغيرها، وجميعها تم تناولها من منطلق مسيحي، فعن الناصرة مثلا يقول: "ها نحن في الناصرة، لنا أيام ونحن نبحث عن (ماريا) والأخوات، ولكن من دون جدوى، وها نحن نترك الناصرة، ونذهب إلى القدس..." (حميد، 2021، صفحة 877).

[1] "النص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكانا خياليا له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة"، (قاسم، 1985، صفحة 74)

المطلب الأول: جسر بنات يعقوب

في عنوان الرواية "جسر بنات يعقوب" إشارة إلى حالتين، الأولى: حال الجسر قبل قدوم يعقوب وبناته؛ والثانية: بعد قدومهم، وكيف أمسى حاله مختلفا تماما عما كان عليه قبل مجيئهم، والجسر هو جزء من كل المكان الفلسطيني، وهو البقعة الجغرافية الصغيرة الكبيرة التي تحمل مصير أمة وشعب بأكمله.

عند حديث الكاتب عن الجسر يركز على قرية الشماصنة المتخيلة، ولم يكن اختيارها عبثا، حيث تقع كما سلف ذكرها إلى الشمال الغربي من طبريا، المسكن الآمن لحياة سكانه وقاطنيه، وفجأة يأتي من يسلبهم حقهم، ويستوطن المكان، ويعيد هندسته حسبما يريد؛ لتدنس القرية بدخول اليهود إليها، ويعاني أهلها المرارة بوجود الضيف الثقيل. ولطبريا خصوصية عند المسيحيين، ويطلقون عليها بحيرة يسوع؛ لأن " المسيح يسوع مشى على مياهها (متى، 6–45)، وأخمد فيها العاصفة (متى، 8–23)، وبأمره ألقى الرسل الشبكة لصيد السمك، فحصلوا على صيد وافر(لوقا، 5–1)، وعلى ضفافها سمن في (كفر ناحوم)، وعلى شواطئها اختار الرسل (مر،1–16)، وفي عدد من المدن حولها بشر برسالته" (خوري، 1997، صفحة 152).

لم يأت اختيار الجسر مكانا ليعقوب وبناته إلا بعد دراسة وتفحص؛ فالجسر غير قربه من طبريا التي تتمتع بخصوصية عند اليهود[1]، يقع أيضا بالقرب من معركة حطين التي وقعت بين الصليبين والمسلمين، ونهر الأردن الذي يستمد قدسيته من أمرين؛ وهما: كونه مقدسا عند اليهود السامريين؛ لأنه نقطة عبورهم إلى أرض الميعاد، وقدسيته عند مسيحيي فلسطين والعالم؛ بسبب "عماد السيد المسيح في مياه نهر الأردن على يد القديس يوحنا المعمدان (متى:3)، و(مرقس، 1–5) و(يوحنا، 1–28)، وفي المكان كنيسة مكرسة على اسم القديس يوحنا المعمدان" (خوري، 1997، صفحة 129). وجاء في

[1] جاء في جريدة اليوم السابع، في مقال بعنوان " ما المدن الأربعة المقدسة في التوراة، ولماذا يقدسها اليهود؟!" المنشور بتاريخ 24-2-2021: " والسبب في قداسة طبريا عند اليهود، هو أنه وبعد فشل ثورة بروكوبا ضد الرومان في الربع الأول من القرن الثاني الميلادي، قامت القوات الرومانية بإجلاء اليهود عن مدينة أورشليم، فرحلت جماعات كبيرة إلى طبريا، وسرعان ما انتقل المجلس الأعلى لليهود المعروف باسم " السنهدرين" إلى طبريا، فأضحت المدينة بمثابة عاصمة الأمة اليهودية الجديدة".

(مرقس): "وقد قدم يسوع أيضا من الناصرة عبر الجليل؛ من أجل أن يتعمد في نهر الأردن على يد يوحنا" (مرقس، 12-9)؛ مما جعل مكان الجسر محط أنظار المستعمرين.

والجسر كما جاء في الرواية يبتعد قليلا عن القرية العامرة بالسكان؛ وبذلك نصل إلى أن(يعقوب) لم يشأ أن يدخل إلى القرية مباشرة؛ لأنها مسكونة بسكانها الأصليين، ولن يستطيع أن يمحو أثرهم بسهولة، فكان من السهل عليه أن يسيطر على الجسر غير المسكون، وينطلق منه لما بعده، وعمل على إحداث تغييرات جذرية في بنية المكان وهيكليته، وهذا نهج الكيان الغاصب الذي يسير عليه؛ من أجل طمس الملامح الفلسطينية وتغييبها، ويصبح الجسر العتيق المنتمي إلى الأرض المقدسة مدنسا بفعل (يعقوب) وبناته، ويحتد الصراع بينه وسكان المنطقة الأصليين عندما يرفضون دفع الضريبة، وتزداد المشاجرات، ويقدم يعقوب القرابين؛ ليرضي الرب، ويحقق مبتغاه، ومن خلال وصف الكاتب للجسر، وحديثه عنه جعلنا نستشعر قيمته، وأنه الغنيمة الأولى ليعقوب وبناته.

ثم يأتي في متن رواية " جسر بنات يعقوب"، وفي صفحاتها اللاحقة الذريعة التي تذرع بها اليهود الممثلون بشخصية يعقوب؛ ليضيفوا شرعية لوجودهم اللامشروع، فيقول: " أخرج من صدره وريقات صفر، وشرع يقرأ فيها بصوت عال: يصادفك في حياتك صخور، وأشواك، ودروب ملتوية، وتمضي بلا أخ أو أب، لكن الرب سيساعدك وقد وصلت النفس إلى هجيرها ويأسها. فلا تقنط فمن بطون الأشواك يخرج لك طعاما طيبا... وقف الرجل بجانب صخرة رمادية كبيرة، وراح يقلب النظر فيهم وهم يصعدون!! وعند سؤاله ليعقوب الذي تقدم نحوه كالمسيّر هاشا باشا... إن كان هو ضيفا، أو مهاجرا، أو رحالة، أو مطرودا، أو طالب علم؟ أجابه يعقوب، ودونما شرح طويل أنه حارس الجسر، وضامنه، واسمه يعقوب، وأنه سيحرس الجسر ويضمنه بموجب صك الحراسة الممنوح له من السلطان... وأخرج من بين ثيابه لفافة ورق وراح يفتحها أمام نظر الرجل، داعيا إياه أن يقرأ الكلام المخول له بحراسة الجسر وضمانه، وحرص حرصا شديدا على أن يريه الخاتم والتوقيع" (حميد، 2021، الصفحات 55-56).

وهذا يتفق مع ما نص عليه الوعد المشؤوم " وعد بلفور"، الذي جاء على هيئة رسالة أرسلها (آرثر بلفور) إلى (وولتر روتشيلد)، في الثاني من نوفمبر(1917)، وفيها صادق البريطانيّون على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فاحتج الصهاينة به، وعدّوه حجر أساس لقيام دولتهم؛ لذلك جاء الكاتب بيعقوب وهو يخرج من جيبه " ورقة صفراء" تأكيدا على يهودية هذه الرسالة، وأيضا نستذكر البقرة الصفراء التي جادل بها اليهود سيدنا موسى عليه السلام، واختار الكاتب اللون الأصفر إشارة إلى أن مآل هذه الحجة إلى زوال، فقد تلفت، وبهت لونها كورق الشجر الذي يصفر ويموت؛ إشارة إلى موت الكيان الغاصب وزواله.

تفوق الجسر على القيمة الجغرافية إلى معان كثيرة ومختلفة، فهو ليس مجرد حيز لمجريات أحداث الرواية فحسب؛ لذلك يعاد ذكره في رواية " أنين القصب"، فيقول: "من ضفة النهر الشرقية، ومن فوق المرتفع المطل على الشماصنة كنت أرى جسر بنات يعقوب الذي تحيط به أشجار التوت، وأجمات القصب، وأعواد الحلفا والبربير والسعد، وأشجار البطم الضخمة خرافية الشكل..." (حميد، 2021، صفحة 372).

من هنا فإن حسن حميد قد أعاد وصف المكان بطريقة مغايرة عن طريقة وصفه الأولى؛ حيث جاء محاطا بأشجار عتيقة لها جذور ضاربة في عمق التاريخ، وهي أشجار التوت والبطم الضخمة، والتي يقدر عمرها بآلاف السنين، وربط الجسر بهذه الأشجار إشارة إلى أن الأرض المقام عليها الجسر قديمة، ولها جذور في أعماق الأرض كجذورها، وكلاهما يعود إلى عهد ما قبل مجيء الصهاينة، وفي ذلك دحض لوجودهم، وزعمهم أن هذه الأرض بلا شعب، فكيف لها أن تزرع وينمو زرعها دون أن يعمرها أحد؟!

ويكرر ذكر الجسر في روايته " الكراكي"، قائلا: "إنّ جسر بنات يعقوب سيفتحه الجنود الشقر ساعتين في صباح كل يوم بعد أن أغلق وقتا طويلا، وأن خبر افتتاح الجسر لا بد من أنه وصل إلى (ماريا) ورفيقاتها، ولا بدّ من أنهن جهّزن أنفسهن للعودة" (حميد، 2021، صفحة 880).

فاليهود الممثلون بيعقوب تمكنوا من بسط سيطرتهم على الجسر، وأقاموا فيه، وجعلوا منه مركزا سياسيا واقتصاديا، وبنى يعقوب كوخا يعيش فيه برفقة بناته، وجعل الكاتب يعقوب يبني كوخا لا بيتا؛ لأن الكوخ آيل إلى الزوال، أما البيت فيرمز إلى الثبات، والأحقية في الوجود على هذه الأرض وتملكها، إلا أنّ اليهود أيضا استولوا على البيوت الأصلية، وسكنوها، وأصبحوا يواجهون العالم بعبق التراث الذي تحمله بيوت الفلسطينيين المشردين، ويحاولون إثبات وجودهم بقدم عمر البيوت التي استولوا عليها؛ لذلك مال حسن حميد إلى الكوخ؛ لأنه سريع البناء والزوال، فقال: " لم تمض سوى ساعات قليلة حتى ارتفع كوخان صغيران من القصب الأصفر اللامع المضفور بأمراس رفيعة، المبطن بقماش الخيش من الداخل، كوخان متلاصقان لا نوافذ لهما ولا أساسات، يشدهما إلى الأرض مجرى ترابي صغير حفره يعقوب وبناته على عجل تحيط بهما حجارة صغيرة وكبيرة مشدودة إلى بعضها بعضا" (حميد، 2021، صفحة 53)؛ تأكيدا على أن دولتهم كما كانت سريعة التأسيس والوجود، ستكون سريعة الزوال، وأن تحكمهم في الجسور والحواجز، وإغلاقها لفترات طويلة، وعرقلة حركة أصحابها سينتهي يوما ما، فالبداية كانت بفتحه لفترات قصيرة، وهذا الفتح طريقا لعودة أصحاب الأرض الشرعيين ممثلين بعودة (ماريا) وصديقاتها اللواتي بدأن يجهزن أنفسهن، وهذه الجاهزية تحمل إيحاء يشير أن جميع اللاجئين الفلسطينيين على أهبة الاستعداد للعودة إلى بيوتهم، وأراضيهم التي رحلوا عنها قسرا.

من خلال الجسر" الجسر العتيق" الذي سمي فيما بعد " جسر بنات يعقوب" وهو المكان ذو القدسية المسيحية الذي يشكل خلاصا أبديا، عبر من خلاله عن قضية جمعية تحمل حلم العودة، والإيمان بالمصير الحتمي الذي في الجسر وهو التوبة، والخلاص من الخطايا؛ فكان الجسر بوجوده ومعناه الباطني، وما يدل عليه في الدين المسيحي، والثقافة المسيحية الحجة التي ربما يكون حسن حميد لجأ إليها في اختياره له، ولكن يبقى سؤال محير آخر يشدنا وهو بما أن موقع الجسر كان في موقعة حطين لماذا لم يشر الكاتب إلى هذه القضية في روايته؟! وفي الصفحات اللاحقة سنجد إجابة لسؤال يدور

حول: لماذا لم يتعمد أن يكون وقوفه وإطلالته من أماكن إسلامية واكتفى بإطلالة من منطلق مسيحي فقط؟!

المطلب الثاني: درب الآلام[1]

يتسم وصف حسن حميد للمكان بالحيوية، وذكر أدقّ التفاصيل، مع إضفاء روح الحياة عليه، ويأتي إسهاب الكاتب في وصفه للأماكن بسبب كونها شاهدا على معانته وشعبه، وتحمل إلى جانب ذلك معاني دينية تصبغ القضية الفلسطينية بالمباركة والتقديس، ومن هذه الأماكن درب الآلام الذي جاء ذكره في رواية " مدينة الله"، ذات البنية السردية الشاهدة على أديان وأمم وحضارات، فلم يكن الحديث عن القدس فيها عابرا، وتحديدا الجزئية التي تتعلق بالدين المسيحي، وأكثر ما فصل منها ما يتعلق بدرب الآلام الذي يعد صورة مصغرة لمعاناة القدس، واحتل الحديث عنه مساحة تتناسب مع خصوصيته ورمزيته، حيث ينقلنا الكاتب إلى مشهد جديد، وهو الطريق الذي ساره السيد المسيح عند مروره بمدينة القدس، وربما لم يذكر أو يوصف كما في هذه الرواية؛ وبالتالي نلمس أن الكاتب في سرديته سار باتجاه محور ديني بحت؛ حيث بدا متأثرا به كثيرا، فحرص على تسليط الضوء على تفاصيل المسيرة، وأضاف لها قدسية وطنية بجعله درب الآلام يمثل درب جميع الفلسطينيين، ويعكس واقع حياتهم المرير، فإيلياء المقدسة تعيش صراعا مع اليهود يوازي صراع يسوع المسيح معهم، وممارساتهم النازية مع الجهتين هي ذاتها.

لم يكن الحديث المطول عن درب الآلام، ومجريات أحداثه زيادة في عدد الصفحات، بل لأن لكل خطوة من خطوات يسوع المسيح في هذه الدرب قصة، ومعنى، وهدفا، فالمكان "لا يعدّ عنصرا زائدا في الرواية، بل يتخذ أشكالا، ويتضمن معاني عديدة، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله" (بحراوي، 1990، صفحة 33).

[1] درب الآلام: هي طريق لا يتعدى طولها كيلو مترا واحدا، وحسب المعتقد المسيحي هي الطريق التي سلكها السيد المسيح عليه السلام من المحكمة إلى جبل الجلجثة حيث تم صلبه، تبدأ من باب الأسباط، وتنتهي في كنيسة القيامة. (عيسى، 2020، صفحة 70).

ورغبة (فلاديمير) في التعرف إلى الأماكن الفلسطينية هي التي جعلت الرواية تتحرك في أكثر من مكان، فكان أداة استخدمها الكاتب؛ ليذكر هذه الحكاية، ويجعلها تخلق قدرا من روايته. وقد سار (فلاديمير) مع الحوذي (جو) في الدرب بعد أن اقترح على الحوذي أن يمشيا فيه، "سأقترح على الحوذي (جو) أن نمشي في درب الآلام الذي مشاه سيدنا؛ كي أرى مواقع ركعتاه وقد أثقل الصليب كاهله... قرب شجرة البلوط الخرافية، هذه التي بدأت تدنو، سترى ركعة سيدنا الأولى... سترى بقعة الدم التي نزفتها ركبتاه... اصطدم الصليب بالحائط، فركع سيدنا ركعته الثانية... ويستدير بنا الدرب، فيفضي إلى ساحة صغيرة، فيقول الحوذي (جو): هذه الساحة التي اجتمعت فيها النساء المقدسيات في أثناء مرور سيدنا، وقد تعالى بكاؤهن، ونشيجهن متألمات. هنا مسحن عرقه، وهنا شرب جرعة ماء... هنا كانت الركعة الأخيرة لسيدنا، فقد انهار جسده تماما، وبات الصليب حملا لا يقوى جسده على حمله... هنا العتبة الفاصلة ما بين الجسد والروح، العتبة التي يسمونها عتبة الخلاص..." (حميد، 2021، الصفحات 446-452).

أثقلت حكاية درب الآلام كاهل (فلاديمير) كما أثقل الصليب كاهل يسوع، ويماثل سيره سير الفلسطينيين محتلين مضطهدين في شوارع القدس والضفة الغربية وغزة وكلّ المدن الفلسطينية، تلاحقهم بغالة اليهود، وتعكر صفوهم وطريقهم، فالفلسطيني وأثناء سيره في شوارع القدس وأزقتها يسير مهمومًا مكسورا، مثقلا بالقهر كثقل سير يسوع وعلى كاهله الصليب، فمسيرة الآلام تحاكي قسوة المغتصب الذي يلاحقهم أينما حلوا، وضربات جنوده وبنادقهم تتطاير بين أرجلهم وفوق رؤوسهم، فينزفون كما نزف المسيح، وتترك دماؤهم آثارا وبقعا مقدسة كقدسية دماء يسوع، وقدسية قضيتهم.

وبالعودة إلى الكتب التي تناولت أهم الأماكن المسيحية المقدسة، سنراها تعرضها تماما كما ذكرها حسن حميد؛ "فعدد مراحل درب الصليب التي سلكها السيد المسيح أربع عشرة مرحلة، منها ما ذكر في الإنجيل، ومنها تقليدية؛ فالمرحلة الأولى والثانية تقعان في قلعة (أنطونيا) المعرفة باسم حبس المسيح، وتليهما سبع مراحل في شوارع القدس القديمة" (خوري، 1997، صفحة 29).

ويأتي حديث الكاتب عن هذا المكان بشكل غريب وفريد، محاولا أن يقرب المسافة بينه وبين القارئ، وإثارة عاطفته ليدرك حجم الوجع، فيقول: "هذه الساحة التي اجتمعت فيها النساء المقدسيات" (حميد، 2021، صفحة 449). فهذه الساحات هي نفسها التي حرمت مرابطات المسجد الأقصى من الرباط فيها، والتردد عليها يوميا عند إجبارهن على التغيب عنها قسرا، وفي هذه الساحات تعالى بكاؤهن مرة أخرى في جنازات الشهداء، ومسحن عرق الجرحى، وتعالت دعواتهن مخترقة السماء إلى رب السماء؛ ابتهالا وخوفا على المرابطين والمجاهدين، وما دعواتهن للجرحى إلا كما الملح الذي رش على جسد سيدنا؛ كي تكوى جراحه وتطيب " فمن هذه الشرفة رشت بنات القدس الملح" (حميد، 2021، صفحة 450).

وفي درب الآلام لاحظنا خضوع المسيح لله " وشدوه جرا والصليب على كتفيه" (حميد، 2021، صفحة 449)؛ فحمل يسوع للصليب فيه إشارة إلى القضية التي سار الدرب الأليم لأجلها؛ وبذلك فقد اتحد الكل الفلسطيني مع المسيح عليه السلام في الوجع والمسير والغاية، وما صلواتنا وصلوات المسيح إلا عبادة ودعاء؛ ليباركنا الله، ويمنحنا القوة لإكمال الطريق حتى الوصول إلى نهايته.

ويشير الحوذي إلى مكان ركعات يسوع، قائلا: " أترى هذه الفوانيس إنها موقدة ليل نهار... هنا ركعة أخرى لسيدنا، وقد نظر خلالها إلى السماء حتى كادت عيناه تخرجان من رأسه، وقد لمع نور أضاء المنطقة كلها؛ وهذه الفوانيس إشارة إلى ذلك النور" (حميد، 2021، صفحة 450)؛ مما يجعلنا نستحضر الشهيد، ونظرته إلى السماء كأن شعاع نور يضيئها وما حولها، كما لمع النور الذي أضاء المنطقة من عيني يسوع المسيح.

ومن وجهة نظر الباحثة فإن في حديثه عن درب الآلام جعل الذات تذوب في حضرة المكان ومأساته، كما أن ذكر يسوع والدرب التي سارها، وإقحامه في الرواية يجعلنا نلمس تأثر حسن حميد بهذا المشهد، كما أن تسليطه الضوء على المسير فيه محاولة لتبصيرنا والعودة بنا إلى ما مر به من سبقونا؛ لنستمد

منهم الثبات والعزم والإرادة، وكيف لنا ألا نفعل ونبي الله ذاق قبلنا ما ذقنا، وعانى أمرّ مـــا عانينـــا؟! وبذلك يزيد قوة المسيح فوق قوتنا، ويبث الأمل بالنصر في نفوسنا، فالدرب مهما طال وصعب سيصـــل إلى نهاية مشرقة تنسينا مرارته الحالكة.

المطلب الثالث: كنيسة القيامة [1]

يتغلغل حسن حميد في الحديث عن مدينة القدس التي جاء إطلاق اسم "مدينة الله" عليها؛ ليثبـــت لليهـــود ومن والاهم وزاود معهم أنها عربية كنعانية فلسطينية باقية لزوال الدنيا، وشاهدة على خلودهـــا ففنـــاء عروبة القدس وفلسطينيتها مرتبط بفناء الحياة، وقيام قيامتها، فيسكن هـــذه المدينـــة الخالـــدة وتســـكنه، وتخصيصه رواية "مدينة الله" للحديث عنها؛ ليتعمق فيها، فندرك ما تعنيه مدينة القدس له، ومن تفصيله لمرتكزاتها المسيحية نلاحظ انعكاسات ذلك الدينية، والتاريخية، والثقافية.

ومن أبرز المعالم المسيحية حضورا ورمزية وقدسية في مدينة القدس كنيسة القيامة الضاربة جـــذورها في التاريخ والوجود، والزائر لكنيسة القيامة يمتزج بالصلوات والتراتيل التي تعج بها الكنيسة، وتتناسق صلواتها مع أذان مآذن المسجد الأقصى، وبقية مساجد القدس بامتزاجهما معا في صورة واحدة يملؤهـــا الطهر والقداسة والبركة. يقول السيد (فلاديمير) في رسالته التي بعث بها إلى السيد (إيفان):

"باركني يا صديقي،

فها أنذا وجها لوجه مع كنيسة القيامة أمشي إليها على شوقي..." (حميد، 2021، صفحة 453).

ويؤمن المسيحيون برؤية (يوحنا) اللاهوتي في العهد الجديد، ويعتقدون أن القدس ستتحول إلـــى مدينـــة سماوية، وهم يكرمون القدس؛ من أجل الدور الذي لعبته في مجيء المسيحية، وفي الذكريات المرتبطـــة

[1] كنيسة القيامة: واحدة من أعرق وأقدم وأهم الكنائس في العالم، تقع في حارة النصارى في قلب القدس المحتلة، استغرق العمـــل فـــي بنائها أحد عشر عاما336-325م. أشرفت على بنائها الملكة هيلانة، وتحتضن الكنيسة عددا كبيرا من الكنائس والأديرة التابعة للطوائف المسيحية الأخرى (عيسى، 2020، صفحة 68).

بها، ففيها أخذ يسوع المسيح ابن الله شكله الإنساني؛ ليخلص العالم من خطاياه، ومرّ بأقصى اللحظات، وأعظمها في حياته على الأرض، ولا سيما وقت صلبه ثمّ قيامته" (لوران، 1995، الصفحات 10–12).

من جهة ثانية " تعدّ كنيسة القيامة لدى المسيحيين في العالم أقدس مكان على وجه الأرض؛ كونها تضم مكان الجلجثة حيث صلب السيد المسيح الفادي؛ فهي مكان فداء البشرية. كما تضم القبر الذي حوى جسد المسيح الطاهر، ومنه قام منتصرا على الموت بعد ثلاثة أيام، وداس الموت بالموت، ويدعوها العالم الغربي " كنيسة القبر المقدس"، إلا أن المسيحيين الشرقيين يتمسكون بالجانب الذي يشير إلى الانتصار فيدعونها كنيسة القيامة، ولولا قيام المسيح لكانت الديانة باطلة" (خوري، 1997، صفحة 11).

ولم تكن كنيسة القيامة يوما بمعزل عن القضية الفلسطينية، بل طالها الكثير من الأذى قديما وحديثا، مثلا " في تاريخ (1971-3-24)، قامت سلطات الاحتلال بمحاولة حرق الكنيسة عندما دخل شخص صهيوني وأخذ يحطم القناديل الأثرية على القبر المقدس، ولولا نجدة الرهبان لفعل فعلته وأحرق الكنيسة، وفي (2019-12-25) اقتحم مستوطن صهيوني كنيسة القيامة شاهرا سكينه ضد مصلين، وحجاج مسيحيين"[1].

والمطلع على العلاقات المسيحية اليهودية يدرك أن هذه العلاقة رافقها منذ القدم صراع ظهر مع ظهور يسوع المسيح؛ فاليهود انقلبوا على المسيحية وقاوموها، ولم يعترفوا بها في بداية الأمر، وتخلوا عن كل من آمن بالسيد المسيح، ودارت صراعات كثيرة بينهما، لكن بعد أن قويت المسيحية، ورسخت جذورها، وأصبح من الصعب أن يزعزع وجودها أحد انقلبت على اليهود، وبالعودة إلى العهد القديم " فمن حيث الوعد الإلهي؛ بمجيئه منقذا للبشرية، ومكملا لجميع الوعود الإلهية، بحيث إنه انتزع من اليهود الأمانة وجسدها في ذاته، ملغيا بذلك كل ما يمكن أن يكون من بعده وعدا بأرض أو بملكوت، مجسدا في ذاته ملء الملكوت الإلهي، ولذلك عينه رفض وقووم وقتل" (زحلاوي ، د.ت، صفحة 15).

[1] وكالة وفا، اللجنة الرئاسية العليا لشؤون الكنائس في فلسطين.

فالمسيحية آمنت بأنها وحدها المؤتمنة على العهد القديم[1] والعهد الجديد[2]، وتبدل الحال "يوم تحولت المسيحية إلى عقيدة للدولة؛ فاستحال الضعف قوة، والمطاردة اضطهادا، فاتخذت إجراءات صارمة ضد اليهود، ولم تعد الكنيسة مجرد مؤسسة دينية، بل اتسع نفوذها بقدر اتساع التحالف بينها وبين السلطة آنذاك، وتسنى للكنيسة أن تنتقل لمرحلة أخرى من صراعها مع اليهودية بمرحلة انتزاع الأراضي من اليهود" (زحلاوي ، د.ت، الصفحات 15-16).

الإجراءات الصارمة التي اتبعها المسيحيون مع اليهود بعد تقوية وجودهم، وبسط نفوذهم، منعتهم من امتلاك الأراضي، ودفعهم الاضطهاد إلى بيع ممتلكاتهم وأراضيهم، وبدأ إخراجهم من جميع مجالات الحياة رويدا رويدا، وكل ذلك كان حجتهم فيه الموقف الديني اليهودي من الدين المسيح، وما فعلوه مع يسوع، وبالعودة إلى التاريخ فإن اليهود شعب منبوذ، وحاولت الدول كافة إخراجهم من أراضيهم، وعرضت عليهم الهجرة إلى أراض أخرى كأستراليا وأوغندا، والأرجنتين، ليرسو القرار أخيرا على فلسطين، حيث كانت آنذاك تقبع تحت الانتداب البريطاني الذي كان بمثابة العصا التي تسيّر اليهود كيفما تشاء، ومهدت لهم طريق الدخول إلى فلسطين، ووضعتهم في مستعمرات صغيرة، وتمثلت حجتهم الواهية بأن فلسطين كانت منذ القدم دولة يهودية تاريخا وشعبا وثقافة، والدليل زعمهم وجود الهيكل الذي عادوا للبحث عنه، واتخذه السياسيون الصهاينة ذريعة لهم في انتخاباتهم واستمالة اليهود إلى صفوفهم.

---

[1] العهد القديم: " هي أسفار تحكي عهود الله مع البشرية قبل المسيح، وأول من أطلقه هو بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس(1،3)، فقد جاء فيها: ولكن أعميت بصائرهم، فإن ذلك القناع نفسه يبقى إلى اليوم غير مكشوف عندما يقرأ العهد القديم، ولا يزال إلا في المسيح(العهد الجديد: الرسالة الثانية إلى كورنثوس)" (المدرس، 2007، صفحة 21).

[2] هو الجزء الثاني من الكتاب المقدس لدى المسيحيين، ويحتوي على 27 سفرا بما في ذلك الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل وسفر الرؤيا، ويشمل على التعاليم التي ألقاها يسوع والأحداث التي تبين سلطته https://ar.wikipedia.org/wiki/%25D8%25A7%25D9%2584%25D8%25B9%25D9%2587%25D8%25AF_%25D8%25A7%25D9%2584%25D8%25AC%25D8%25AF%25D9%258A%25D8%25AF، وهو الوعد الذي يعطيه الله للبشر بغفران الخطايا، واسترداد الشركة بينه وبين الذين تتوجه قلوبهم إليه (لوقا 20:22).

وأصبحت العصابة الصهيونية تمارس سياسة الاضطهاد التي مورست عليها على الفلسطينيين، وتبرر جرائمها بقتل العالم لها قديما، ومنح اليهود أنفسهم امتيازا فريدا تمثل بإيمانهم بأنهم شعب الله المختار، ولكن " اللاسامية[1] القديمة لم تكن بمستوى عنف الحركات اللاسامية اللاحقة، ولكنها كانت حقيقة واقعة، وهي تتبدى كمثال رد فعل حيال الانعزالية اليهودية" (زحلاوي ، د.ت، صفحة 42).

والقارئ لأقوال يسوع، والدارس لأفعاله في القدس "يدرك أنه عدّ القدس عاصمته؛ حيث تربع على عرش العظمة الدنيوية– بما أن ملكوته ليس من هذا العالم ينظر (يوحنا،32:18)، بل على عرش الصليب، وهكذا أصبحت القدس مرة أخرى، وأفضل من أي وقت مضى "مدينة الملك العلي" و "بهجة الأرض كلها"" (عيسى، 2020، صفحة 5).

وتبعا لقدسية مدينة القدس المسيحية، وانطلاقا من وجود كنيسة القيامة فيها، ورمزيتها الدينية، والعقائدية؛ فإن اليهود ما زالوا حتى يومنا هذا يسخرون كل طاقاتهم لإلغاء أي وجود مسيحي إلى جانب الوجود الإسلامي؛ لتبقى القدس كما آمنوا بها في معتقداتهم لهم وحدهم، وأنّ لا دين فيها سوى دينهم، وهي محط عودتهم، ومقبرة عظامهم؛ فمنذ " ألفي عام إلى اليوم، واسم يسوع يجثم كالكابوس على الفكر اليهودي؛ لسببين: ديني يعود إلى تخطي تعليم يسوع خط التاريخ اليهودي كله، بحيث وضع الشعب اليهودي في موقف اختيار حرج ونهائي؛ أما السبب الثاني فتاريخي اجتماعي يعود إلى انتصاب صليب يسوع في قلب التاريخ البشري كله" (زحلاوي ، د.ت، صفحة 43).

[1] ينظر: وكالة وفا للأنباء والمعلومات الفلسطينية https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=3oWst6a3187420797a3oWst6: اللاسامية: مصطلح اخترعته الحركة الصهيونية؛ للتعبير عن معاداة اليهود، وكلمة سامي مأخوذة مما ورد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين: أن أبناء نوح هم سام وحام و يافث، وقد استغلت الصهيونية فكرة اللاسامية لتحيق أهدافها في إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين. وكان هناك اعتقاد بأن اللاسامية ستنتهي بهزيمة النازية، ولكن الصهيونية أرادت للاسامية أن تستمر.

المطلب الرابع: كنيسة المهد

أقدس كنائس العالم، منها ترتفع أصوات أجراس الكنائس منادية أتباعها في كل أنحاء العالم، ومنها صدحت الأصوات: " المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام لبني البشر، هذه الترنيمة الخالدة التي صدحت بها جوقة ملائكة السماء تزف للعالم بشرى ميلاد السيد المسيح ملك السلام في بيت لحم الخالدة، الصغرى في حجمها، الكبرى في مكانتها وفخامتها، تهفو إليها قلوب الملايين من الناس المتشوقين لزيارتها، والانحناء أمام مهد المسيح فيها" (خوري، 1997، صفحة 80).

لم يأت تقديس المسيح والمسيحيين حسبما جاء في روايات حسن حميد عبثا؛ بل كان حبا في الخلود؛ وسعيا وراء التخلص من الخطايا والذنوب، وطلبا للطهارة، لذلك نرى الاهتمام الكبير والحرص الشديد على هذه الأماكن، وانعكاسها في الروايات المدروسة، ولعبت كنيسة المهد منذ زمن بعيد دورا دينيا ووطنيا، وأعين اليهود دائمة الاطلاع إليها؛ لأنهم "سكنوها بعدما عادوا من سبي بابل، وكانوا يتأملون بنبوءة قدوم المسيح المنتظر، ولا سيما نبوءة النبي (ميخا)، فقد ولد المسيح فيها بعد (750)سنة من هذه النبوءة، ونقرأ في إنجيل (لوقا،2-11): "وصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة إلى مدينة داؤود التي تدعى بيت لحم؛ لأنه كان من بيت داود ومن عشيرته، ليكتتب مع امرأته المخطوبة وهي حبلى، وبينما كانا هناك تمت ولادتها، فولدت ابنها البكر فقمطته وأضجعته في مذود؛ لأنه لم يكن لهما موضع في المنزل" (خوري، 1997، صفحة 81).

وعن ذلك تحدث (حنا جقمان) في كتابه " جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم"، قائلا: "في هذا الخان اجتمع اليهود الذين هربوا مع (أرميا) النبي وقت الجلاء البابلي، وفي هذا الخان أيضا نزلت مريم ويوسف عندما سافرا من الناصرة إلى مدينة بيت لحم للاكتتاب الذي أمر به (أغسطس قيصر) حيث كانا من بيت داود وعشيرته في بيت لحم، وبما أن كل البيوت كانت مزدحمة؛ فقد اضطرا أن يعرجا إلى خان كممهم، الذي لم ينزلا فيه؛ لأن جميع غرفه كانت مزدحمة؛ بسبب كثرة

الوفود التي حضرت للاكتتاب، لكن سمح لهما باللجوء إلى إحدى المغاور التابعة للخان، والتي كانت معدة لإيواء الحيوانات فنزلا بها؛ نظرا للضرورة الملحة إذ شعرت مريم العذراء بقرب الولادة. بالإضافة إلى ذلك لم يكن لديهما مجال للبحث عن مأوى آخر لائق. وفي هذه المغارة ولد الطفل يسوع، وقمطته أمه، وأضجعته في مذود كان يستعمل لوضع علف الحيوانات فيه" (جقمان، 2000، صفحة 161).

ويصف الزائر لصديقه كنيسة المهد التي بهرته، قائلا: "ها هي ذي الكنيسة، تبدو وتبين مثل جبل من الرخام الخالص... جدران بيض لكأنها غسلت للتو بضوء الفجر الشفيف، وبوابة واسعة يحفها عمودان من الرخام الصقيل، يعلوهما تاجان مشجران تتوسطهما أيقونتان كبيرتان للسيد والسيدة، ومن خلف رأسيهما بدت هالتان من النور... أنت وفي هذا المكان كلما رأيت شيئا صليت، وكلما خطوت صليت، إن رفعت رأسك للأعلى تصلي، وإن التفت إلى يسار أو يمين تصلي، إن انحنيت صليت، لا كلام هنا سوى الصلاة، ولا رجاء هنا إلا بالصلاة، وفي المقابل متسع رخامي آخر، أقلّ ضوء المغارة التي لجأت إليها سيدتنا العذراء حين هربت بسيدنا، واختفت عن أعين الجند الباحثين عن المواليد الجدد..." (حميد، 2021، الصفحات 480-481)، وحال سيدتنا العذراء في خوفها على رضيعها لا يختلف كثيرا عن حال الأمهات الفلسطينيات اللواتي ترجف أحشاؤهن وقلوبهن؛ خوفا، وقلقا على فلذات أكبدهن ولا سيما أن العدو واحد.

وبالعودة إلى التاريخ القديم، فإن كنيسة المهد " هدمها السامريون سنة(529) م، عندما ثاروا على المسيح، وقتلوا الرهبان والراهبات، وهدموا كثيرا من الكنائس في بلادنا، مما اضطر الملك (يوستينيانوس) إلى معاقبتهم، فذبح الكثير منهم، وتنصير بعضهم، ومن ثم أعاد الملك بناء الكنيسة الحالية التي تعد أقدم كنيسة في فلسطين؛ إذ تعود إلى سنة (535) م" (خوري، 1997، صفحة 87)، وما زال حتى اليوم يأتي إليها أعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين، والزوار باختلاف دياناتهم من جميع أنحاء العالم.

المبحث الرابع: علاقة الشخصية بالمكان المسيحي

بالرجوع إلى الصفحات السابقة قليلا أدركنا يقينا أن روايات الكاتب المدروسة زاخرة بشكل كبير بالأماكن، وما يصاحبها من انفعالات، وانعكاسات، وتحولات أثرت على شخصيات الرواية. والشخصيات يربطها بالمكان علاقة جدلية مميزة، فلا يمكن أن تتحرك دون مكان تتواجد فيه، وفي المقابل لا يمكن أن يحظى المكان بأية قيمة دون وجود الإنسان فيه، وتفاعله معه، وندرك ذلك من خلال ملاءمة الكاتب بين الأماكن التي تحدومث عنها، وانتقائه للشخصيات التي جعلها فيها، فالكاتب يمتلك وعيا كبيرا في اختيار شخصياته ونفسياتها، والأماكن المناسبة لها، وبالتالي إحداث ملاءمة بين شخصياته وأماكن تواجدها، خاصة أن المكان "لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر الشخصية التي تعيش فيه أو تخترقه، وليس لديه أي استقلال إزاء الشخص الذي يندرج فيه" (بحراوي، 1990، صفحة 31).

وفي المبحث السابق لاحظنا مراوحة الكاتب بين الأماكن الرئيسة والثانوية، والمغلقة والمفتوحة، وبطبيعة الحال فإن الشخصيات تتحرك بينهم، وتدور دائرتها في رحابهم، فتتأثر بهم، وتؤثر عليهم. كما لاحظنا اختلاف الدلالات، والأبعاد التي احتوتها الأماكن المذكورة؛ مما أسهم في اختراق الشخصيات للحدود الجغرافية لهذه الأماكن، ومساعدتها في رسم معالم الفضاء الروائي الذي تعد جزءا لا يتجزأ منه.

ومن وجهة نظر الباحثة فإن استخدام الأماكن الواقعية بالطريقة الذكية التي سلكها حسن حميد أضفى مصداقية، وجعلها أكثر خصوبة في التأثير على الشخصيات، خاصة أن المكان تحرر من سكونه وجموده، وبذلت الشخصيات جهدها؛ من أجل اختراق دائرته المغلقة، والتفاعل معه، ويأتي هذا التفاعل كنتيجة حتمية لمشاعر إيجابية؛ كالفرح، والحب، والنجاح، والانتصار، أو لمشاعر سلبية؛ كما الحزن، والفراق، والفشل، والحنين، والغربة؛ وانطلاقا مما سبق فإن المكان "يشكل أهمية بارزة في الرواية الفلسطينية، بوصفه نموذجا دالا على الحياة، وخلفية الأحداث، وعنصرا فاعلا في الشخصية الروائية؛ حيث يدفع بها إلى الفعل" (عبيدات، 2005، صفحة 123).

ويعد المكان بمثابة هوية الشخصية، والعكس صحيح، فتبادل الأدوار بينهما يفصح عن دلالات، وانعكاسات، وحقائق لا تبدو واضحة في بعض الأحيان إلا من تداخل هذين العنصرين، والتفاعل بينهما، وتشكل المفارقات، وهذا الاستنباط لا يتأتى إلا من خلال الدراسة، والقراءة العميقة، فالمكان "في حركة أخذ وعطاء مع الشخصيات الروائية، وأحداثها، يتوجه بوجهتها، ويرتبط بحركتها، ويقدم بما يدفع أحداثها إلى الأمام" (شاهين ، 2001، صفحة 17).

وتضيف الباحثة إلى ما سبق أن تقنية وصف الأماكن التي اعتمدها حسن حميد، وعرضها عن طريق الراوي أو الشخصيات هي تقنية ناجحة وفاعلة، استطاعت تأدية رؤية الكاتب كما أراد، وارتبط كل مكان بشخصية خاصة به تقيم فيه، لا تكتمل صورة إحداهما إلا حال وجودها في نطاق الآخر، حتى الأماكن الدينية تفاعلت مع ساكنيها، فلو عدنا للدير لوجدنا أن من يعيش فيه هم الرهبان والراهبات، وبحركتهم داخله تحدد سلطة كل منهما على الآخر.

فمثلا الراهبات "جئن للدير؛ ليتعلمن حيازة رضا الله، ومحبة الناس، ومساعدتهم دونما غاية، أو شهوة، أو مآرب صغيرة كانت أم كبيرة، عشن في أديرة كثيرة فترات قصيرة وطويلة، واعتدن الإخلاص، واللهفة على الآخر، وارتضين بأن يكن مراهم شافية لجروح الناس الظاهرة والمخفية، لقد جمعهن الحزن والمآسي، والخذلان في هذا الدير، وكن موقنات بأن يتعلم الأطفال على أيديهن أصول الدين والصلوات..." (حميد، 2021، صفحة 30)؛ فالدير هنا أعطى بصمة لشخصية الراهبات فيه، بصعوبة كبيرة ونادرة ما يستطعن الإفلات منها، خاصة أن تواجدهن داخل الدير يحتم عليهن الالتزام بالقضية الجوهرية التي كانت سبب مجيئهن إليه، وهي في قضية دينية بحتة، تغيب عن أذهانهن فكرة التفكير في الحياة ولهوها، وتضع أمام أعينهن غاية وحيدة تتمثل بحيازة رضا الله، ومساعدة المتعثرين عن هذا الطريق العودة إليه، فكن الحياة لهذا المكان، وفي ذات الوقت شعرن بأرواحهن مفعمة بالحياة والأمل ومنحن راحة نفسية مقابل ما يقدمن من عطاء، ولكنه من جهته يفرض عليهن سلطته، وأفكاره، وتصوره، ولم يعد بإمكانهن الإخلال بركيزة من ركائزه؛ لأن ذلك يخل بسلطته الدينية، ومكانته التي

كان من أجلها؛ مما يجعله يسير الشخصية بطريق واضح محدد طالما هي موجـــودة فيـــه، فالشخصـــية احترمت المكان المتواجدة فيه، وكانت على علاقة جيدة معه، وراضية بحياتها ضمن جدرانـــه؛ لأنهـــا تدرك غاية وجودها فيه، فرفرفت الطمأنينة عليها، ومارست حياتها وواجباتها بحب.

وبالرغم من أن هذا المكان أليف، وأمومي باعتباره ملجأ من الأحزان والخذلان خارج أسواره، إلا أنه وبحكم أهميته يضيق عليهن كثيرا، ويجبرهن على تناسي أنوثتهن، وحاجـــاتهن ورغبـــاتهن الفطريـــة والإنسانية، فما تستيقظ الغرائز بداخلهن حتى يجدن أنفسهن يبحثن عن مخرج يخفف عليهن ولو قلـــيلا، ولا سيما أن المكان بسلطته سلبهن إرادتهن.

ونبرهن باعتراف الراهبة (ماريا)، حيث قالت: "هنا في هذا الدير النائي الجميل، حاولت أن أقتل شـــهوة الجسد بالعمل، والصلوات، والركض والسجود، والركوع، وبالإماتة، والنذر، والطاعة، والعفة، ومعرفة مشكلات الناس وأحلامهم، واستطعمت مرات عديدة حلاوة مساعدة الآخرين ومحبتهم وإن كانوا قســـاة بغضاء. لكنني لم أستطع نسيان دعاس، كان معي في مأكلي ومشربي، وفي قيامي ومضـــجعي، طيفـــه يلازمني... وأني لن أتوانى ولو للحظة واحدة عن فتح ذراعي له، وأخذه إلى صدري في ضمة عمرها ألف عام، معتقة مثل الصلاة الرحيمة الشافية" (حميد، 2021، صفحة 37).

ومن الزاوية نفسها فقد فرض المكان على الراهبات حكما قاسيا تمثل بتنكرهن على هيئة الـــذكور، "لـــم ينته النهار حتى عرفت أن هؤلاء الرهبان هم غواية الدير حقا، فقد كانوا راهبات يلبسن زي الرهبـــان؛ كي لا يطمع بهن طامع؛ وكي لا يتجرأ عليهن أحد" (حميد، 2021، صـــفحة 235)، فالـــدير بســـلطته حرمهن أبسط حقوقهن، وبهيمنته كان لزاما عليهن أن يتخلين عن مشاعرهن وأحاسيسهن ظاهرا، رغـــم ما يدور في عقولهن وأفئدتهن، فأصبحن كحجر نرد في لعبة شطرنج.

وهنا نستطيع القول إن الدير هو المكان الأمومي الذي لجأن إليه، وفي نفس الوقت كان برحابته المكـــان المغلق الذي يحجب بين عوالم أنوثتهن وما يفرضه العالم الخارجي عليهن، "وظل الأمر كذلك إلـــى أن

حضر (حنا) إلى الدير فاستيقظت الروح المرمدة تجاه الرجل مرة أخرى، لكأن ثمة جمارا لم تنته من وقيدها بعد، حاولنا مرات كثيرة أن نبتعد عن (حنا)، أن نكف عن التحويم حول عالمه لنكتشفه، إلا أننا أخفقنا كثيرا... كان المسكين يظن أننا نراقبه من أجل سير سلوكه، لكننا كنا نراقبه ونستحضره؛ من أجل أرواحنا التي رأت الرجل وما عرفته، والتي عرفت الرجل وحنت إليه" (حميد، 2021، صفحة 44).

وكانت النتيجة أن هرب (حنا) من الدير بعد أن اكتشف حقيقة الرهبان (كونهن راهبات ولسن رهبانا)؛ وبذلك ظهر جليا أن الراهبات لم يتملكن الجرأة، والشجاعة؛ ليطلقن العنان لأنوثتهن، فالدير حتم عليهن أن يعشن راهبات منعزلات، ومنفصلات عن العالم الخارجي وواهبات أنفسهن للدير وشؤونه، وأضحت أنوثتهن ضمن هذا العالم غير المسموح تجاوزه والانغماس فيه، فكان الدير مكانا معاديا مهيمنا تحكم بهن، وحرم عليهن ما هو خلف الأبواب المغلقة، فشاب حياتهن البعد عن الحياة الروحية التي تاقت أنفسهن إليها.

وترى الباحثة أن الكاتب اعتمد في حديثه عن الشخصيات، وبنائها أن يجعلها تنمو، وتتطور مع المكان الذي وجدت فيه، حتى تحقق الانسجام مع البيئة التي تعيش فيها، ويصبح العنصران بمثابة عنصر واحد لا يمكن فصل أحد جزئيه عن الآخر، وفي هذا الموقف نستحضر صفية؛ حيث " كانت أجمل الراهبات، مولعة بالرسم، فملأت جدران الدير بالأيقونات التي تجسد روح المسيح، والأنصار، والقرى، والسماوات من حوله بقناديلها المنارة... وصفية هي بيت أسرار الأختين، وأسرار الدير معا، وهي الملجأ والرحمة، وهي المؤاسية، والغفور على الدوام" (حميد، 2021، الصفحات 45-46).

فمثلت صفية الحياة للدير، وحملت روحه بين جناحيها، وأضحى بوجودها مكانا أليفا حميميا للأخوات، يحمل الحب والأمان والدفء، والحنان. كما انعكس تأثير المكان على شخصية صفية وتصرفاتها ونفسيتها؛ حيث جعلت من الدير المكان الهادئ المغلق مكانا رحبا مارست فيه هواياتها، وفرغت عما

بداخلها من خلال الرسومات التي ملأت جدرانه، وأيضا كانت ملجأ للأخوات تواسيهن وتآسيهن، وتغمرهن بحنانها، وتعمهن برحماتها وغفرانها، فتجعل من الدير مكانا حانيا عليهن.

أما بالنسبة للرهبان فلم يختلف الأمر كثيرا عن الراهبات، بدءا من قبل قدومهم، فالراهب عطايا يقول عن مجيئه إلى دير الشماصنة: "جئت هنا برفقة سيدنا عواض، كان طوال الطريق يشيد بصبري، وإخلاصي وإيماني العميق، ففهمت أن مهمتي في الدير صعبة، وأن ما ينتظرني مهم، ولولا ذلك ما اختاروني لأكون قيما على هذا الدير من بين عشرات الرهبان" (حميد، 2021، صفحة 219).

إن طبيعة المكان ألزمت على عواض أن يقدم الشخصية، وأن يجعلنا نشكل رؤية مسبقة عنه، وصفات الشخصية، وتصرفاتها تعكس صورة المكان المتواجدة فيه، فالحضور الديني للدير، وما يحمله من دلالات تجعل كل الصفات التي أشار إليها عواض تتغلغل في عمق شخصية عطايا، ولكنه بطريقة أخرى جعلنا نشعر بالتخبط، والخوف الذي بدأت ملامحه بالظهور على شخصية عطايا بعد حديث عواض.

من هنا تستنتج الباحثة أن وجود الشخصية في هذا المكان أصبح مشروطا، كما أن وجود المكان مشروط بشخصية تتجاوب معه، وتتأثر به، وتستجيب لظروفه؛ لذلك فإن ارتباط عطايا بهذا المكان سيساعد في الكشف عن نواح نفسية أخرى تتمتع بها هذه الشخصية، رغم وجود جميع الصفات التي تؤهله، وتمنحه قوة؛ ليكون قيما على هذا الدير. ولكي تتمكن الشخصية من التكيف والتأقلم بشكل كاف مع المكان الذي تتواجد فيها ستتغير، وسيترك المكان انطباعات إضافية، وبصمات مميزة في الشخصية التي تتفاعل معه.

وبالرغم من أن تقديم الأمكنة في الرواية جاء أحيانا مرتبطا بتقديم الشخصيات، فإن هذه الأخيرة لا تخضع كليا للمكان، بل العكس هو الحاصل؛ " إذ إن الأماكن في هذه الحالة هي التي سيوكل إليها

مساعدتنا على فهم الشخصية" (بحراوي، 1990، صفحة 30)؛ بناء على ذلك ندرك أن الكاتب مـــتمكن بشكل فريد من كيفية انتقاء شخصياته كل في مواقعها.

فضلا عن علاقة الراهب عطايا في الدير، فإن حسن حميد يشركه في القضية الوطنية، والهم الجمعـــي الذي يجسد معاناة كل فلسطيني مهما اختلفت ديانته، فالراهب عطايا هو الذي نبه إمام المســـجد بـــأن لا يضع الأسلحة في داخله، فورد على لسان شيخ المسجد قوله: "نبهني قبل أيام من مجيء الثوار كـــي لا أضع الأسلحة في داخل المسجد؛ لأن شراسة الإنجليز لم تراع حرمة الدير والكنائس فـــي الكثيـــر مـــن القرى... وأنهم جاؤوا إلى الدير وفتشوه، وهم في حالة عماء وهيجان... لذلك ومنذ البداية نحيت فكـــرة وضع البنادق داخل المسجد، المكان الذي يبدو لي الأكثر أمنا، والأبعد عن متناول يد الإنجليز" (حميـــد، 2021، صفحة 276).

وفي قضية التنبيه هذه إيحاء بأن ذكاء الراهب تفوق على ذكاء الشيخ، ربما لخبرته باليهود، وأطباعهم، وطرائق تفكيرهم، ولا سيما أنهم خاضوا معهم مناوشات عديدة منذ ولادة السيد المسيح اكتســـبوا منهـــا مهارات كثيرة ساعدتهم على فهم عقليتهم الغريبة، وفي رواية عطايا لما يحدث من تفجيـــرات وقتلـــى وجرحى إشارة أخرى لتولي الرهبان المسيحية القضية الوطنية وزعامتها، وأنهم اللسان الناطق بحالها.

وترى الباحثة أن الكاتب جعل من شخصية الراهب عطايا المتواجدة في الدير شخصية معطاءة، وصلبة وقادرة على التجاوب، والتأقلم مع كل الظروف، وقد ألقي على عاتقه هموما عديدة ومسؤوليات كثيـــرة، ورغم تخوفه من ثقلها قبل وصوله إلى الدير أن هذا المكان أصبح حميميا، ومألوفا بالنسبة له.

وأخذت هذه الشخصية تستمد عاداتها، وتقاليدها، وثقافتها من المكان الذي التصقت به، مما يعكس مـــدى الانسجام بينهما، واتحادهما معا ينبىء بأن قوة المكان أو ضعفه، أموميته أو أبوته، أليفا أو غريبا يرتبط بحال ساكنيه، والشخصية الموجودة فيه بأبعادها النفسية والسيكولوجية، ومدى قدرتها على التكيف معه،

وتأكيدا على رأي الباحثة ندلل بقول الراهب عطايا: " كان الدير ملاذي رغم وحدته الشاسعة، ورتابته الموجعة، وصمته الرهيب" (حميد، 2021، صفحة 224).

كما أن ارتباط الشخصيات بهذا المكان جعلها تناجي نفسها أولا، والمكان ثانيا، والقارئ ثالثا، وفي ذلك رسالة بمضمونها الديني، والتاريخي فيما يتعلق بالدير، وعلاقته بساكنيه لها مغزاها، قد يراها قارئ محدودة الغاية، وقد يراها آخر من زاويته الخاصة.

وبما أن أغلب روايات حسن حميد كان الدير جزءا كبيرا منها، فستكون أغلب شخوصها من الرهبان والراهبات فها هو الأب (طنوس) قد نذر نفسه لخدمة الكنيسة، وكان الأب الروحي لهدلة وابنها الذي احتضنته، فكان بديلا عن أبيه الغائب، وعندما فتحت هدلة بيتها للأب(طنوس) وابنته كانت هي الأخرى بديلا عن زوجته وأمها الغائبة، ومارس مع هدلة الحب العفيف لما وجد عندها من حب وحنان وقبول.

ولارتباط الأب (طنوس) بالدير، والاحترام الديني له، والخصوصية التي تمتع بها كان يعطف على هدلة وولدها، فيقول عبودة: "لحظتئذ رأيت الأب (طنوس) ينحني علي ويرفعني، ثم ينحني على أمي، ويرفعها... وتنظر أمي نظرة الخوف، تتوقف عن الكلام، فيربت الأب (طنوس) على كتفيها، وهو ينظر إليها بإشفاق" (حميد، 2021، الصفحات 770-771).

وفي حديث الراوي الدائم عن الدي، وعلاقة الشخصيات القاطنة فيه معه استعرض مكانا دينيا بحتا تنطلق منه علاقة الرهبان مع سكان القرية، وتخولهم حرية الدخول والخروج إلى بيوتهم، فيجدوا في بعضها تعويضا عما فقدوه، فيكثر ترددهم عليه، ويصبح جزءا من روتينهم اليومي.

وبالتعمق في رواية "الكراكي" نرصد أيضا شخصية عبودة، ونحدد أبعاد تواجدها في الأماكن، وتأثرها بها، ومعرفة مدى الارتباط، ونوعيته بين الشخصية، وأماكن تواجدها، وبالحديث عن عبودة فقد أصبح المكان بطلا في تكوين شخصيته وتطورها، وأدى دورا فعالا في سيرورة حياته وتفاعلاته، وألقى

بظلاله عليه، وهو ما نلاحظه من اختلافات وتناقضات داخل الشخصية الواحدة، فكل مكان تواجدت فيه أثر بها بطريقة مغايرة.

فالبيت المكان الأمومي الآمن اختلف أثره في شخصية عبودة عن الحقيقة المعهودة، ويذكر ذلك على لسانه في قوله: "أمي تقول، إنني كنت ذلك المولود الذي لم تطلع به على الناس يومذاك؛ لأنني كنت مريضا بين الحياة والموت، لم أقبل على صدرها، ولم أقبل بها، لم أشمّ رائحتها، كنت في غيبوبة، وأنني كنت أشهق و أغصّ، وأصفّر وأزرّق، وأنني كنت ميتا لولا بكائي وأنيني" (حميد، 2021، صفحة 757)، فمنذ لحظة الولادة لم يكن عبودة كباقي الأطفال، ولم يحتفي به بيته كباقي البيوت، وطال مكوثه مريضا، ونادرا ما كان يشفى أو يستطيع مغادرة البيت، وإن غادره فلا وجهة أمامه غير الدير "أجيء إلى الكنيسة بعد غياب غيبني في البيت طويلا، بعدما افترسني المرض، واشتدّت عليّ الحمى، وما كان لي أن أستعيد قوتي لولا رؤيتي للأب طنوس" (حميد، 2021، صفحة 761)، فعبودة في هذا الموضع شخصية سلبية في علاقته مع بيته، وأفصح الكاتب عن صورة البيت المكان المألوف عادة، والمعادي بالنسبة لعبودة وقد اكتسب صورته مما حملته الشخصية التي لم تكن شديدة الارتباط بهذا المكان، خاصة مع وجوده وحيدا برفقة أمه هدلة، مما جعل البيت بجدرانه وكلّ ما فيه محملا بالوجع، وغصة الوحدة.

ثم كان المرض الذي لم يرحمه، فبدأ يشعر بالضعف، وانعدام الرغبة في كل شيء حتى أصبح مكانا تشاؤميا؛ لذلك رأيناه يعاود الحديث مرة أخرى عن مرضه الذي تجدد عليه مرارا وتكرارا، فيقول: "ما عدت قادرا على التقلب في مفرشي، أو الوقوف على قدميّ، لكأنني صرت كائنا خشبيا، والمقلق أنني أحسست أن جسدي راح يضمر..." (حميد، 2021، صفحة 773).

من هذه العلاقة أراد الكاتب خلق صورة جديدة تغمرها مشاعر القلق، والتعب، وفقدان الهدوء النفسي الذي كان حريا على عبودة معايشته في بيته بدلا من الكنيسة، وأظهر ملكته الإبداعية في قدرته على مخالفة المألوف؛ ليؤكد أنّ "الأمكنة تحفر آثارا عميقة وأخاديد واضحة في الشخصية" (حسين، 1999، صفحة 46).

أما الدير المكان الغريب المألوف الحميمي الأمومي، قال عنه: " آتي إلى هنا كأنني آتي إلى بيتي؛ كي أرى الأب (طنوس)؛ لأقول له إن قلبي وقع في شرك النساء" (حسين، 1999، صفحة 778)، حيث إن وجود الأب (طنوس) هو الذي جعل الدير حنونا على عبودة، فأصبح الدير الجوهرة التي بحثت عنها الشخصية، وهي في عطش دائم لزيارتها مرارا وتكرارا، وأصبحت نفسه تتوق إلى التواجد فيه، وعدم الانقطاع عنه؛ لأنه ساعد الشخصية في الكشف عما في داخلها، ومنحها الأمل في الحياة والرغبة في الاستمرار، وعن ذلك قال عبودة: "هنا أرى الدروب والطرقات والتلال تسير نحو الكنيسة كالماء" (حميد، 2021، صفحة 760)؛ فالراوي جعل من عبودة شخصية نامية تتأثر بانتقالها من مكان لآخر، وتباعا فإن سلوكها يتغير، ونفسيتها تتأثر، والمكان الذي يبدو للزائر غير مألوف بدا مألوفا لعبودة " آتي إلى هنا كأنني آتي إلى بيتي" (حميد، 2021، صفحة 777)، وجعل منه شخصية اجتماعية؛ لما حظي فيه من حب ودفء فأصبح مكانا أموميا أكثر من بيته.

كما أن العلاقة التي قامت بين الشخصية والمكان هي التي حددت طبيعته، فماريا قاطنة الدير كانت حجر النرد الذي شارك في تغيير شخصية عبودة، فتتوجه هدلة إلى عبودة مخاطبة إياه بقولها: "يا ولد راحت العافية تجري في جسدك، صرت تأكل وتشرب وتنام وتلعب مع رفاقك، صرت من أبناء الحياة، وقد زها وجهك، وأشرق حين أخذك الأب (طنوس) إلى الكنيسة؛ كي تتعلم القراءة والكتابة، وحفظ الدروس والأدعية، هناك في الكنيسة علمتك ماريا، وهناك في الكنيسة أطعمتك اللوز والجوز والسكر، وهناك رأيتها تقبلك بفرح" (حميد، 2021، صفحة 831)؛ وبذلك فقد مارس المكان وقعا إيجابيا على عبودة.

وسرعان ما يضيق المكان الرحب عليه، ويضعف شخصيته، ويجعلها مهزومة، ومريضة إذا فقدت ما يربطها به، يقول عبودة: "أنادي ماريا ماريا، فلا تظهر هي، ولا أحد يخرج علي من رعاة الكنيسة، وخدامها؛ كي تتخلص روحي من حيراتها وعذابها ونداءاتها المألومة، أدور في المكان الرحب، أبحث في الغرف والردهات، وفي المصلى، وقرب المذبح، وفي قاعة التعميد، وفي قاعة الدرس، وفي القاعة

الكبيرة، أمر بحجرة الجرس، وحجرة الملابس، ولا أحد يرد علي ليريح نفسي المشقاة" (حميـد، 2021، صفحة 768)؛ فما عانته الشخصية في المكان المألوف سابقا هو الذي أعطاه الطابع المعادي فيما بعـد، كما أن الصراع الذي نشأ داخل شخصية عبودة نتيجة عدم لقائه (ماريا) هو الذي جعل من الدير عقـدة عنده، وأثر سلبا على شخصيته فيما بعد، ودخلت روحه إلى أن أصبح محموما بها.

والمتعمق في شخصية عبودة وقوتها وضعفها يدرك أنها تأثرت كثيرا بالأماكن وساكنيها؛ فكان البيـت منذ البداية رمزا للعذاب حيث فقد عبودة والده بعد سفره، وفيما بعد خرجت أمه هدلـة؛ لتبحـث عـن زوجها عزيز، وفقد (ماريا) التي خرجت من الدير للشام ولم تعد، والأب (طنوس) الذي مات بعد غياب (ماريا) وهدلة، وذلك كله لا يمثل واقع عبودة وحده، بل يمثل واقع وطن بأكمله، وبقاؤه وحيـدا يماثـل حال فلسطين التي تركت وحيدة وخذلها الجميع منذ ذلك الحين حتى اليوم، فلا أخوة، ولا أصـدقاء، ولا أحباب إن صحّ التعبير؛ حيث أمست يتيمة كيتم عبودة، ولا أحد يساندها، ولا تقوى إلا بأبنائها.

وبعين الباحثة فإن عدم الاستقرار الذي عانى منه عبودة أمر طبيعي يتناسب مع الظروف التـي غلبـت على رواية "الكراكي"، والروايات الأخرى، سواء أكان لأسباب دينية أم نفسية أم وطنيـة، ومـا كابـده عبودة من معاناة أثقله بالألم والوجع والضياع، وترك فيه جرحا نازفا لا ينـدمل كحـال أبنـاء شـعبه الآخرين، ومن ارتباط مصير عبودة بمعشوقته الأنثى، وغياب الحياة عنه بغيابها، قصد الكاتب فلسطين الأم الإلهة، عشتار رمز الحياة، والخصوبة، والجمال، والعطاء، وبفقدانها تفقد كـل الأشـياء معانيهـا، وتصبح قاحلة لا روح فيها.

بعد دراسة المكان من أكثر من زاوية نستطيع أن نخلص إلى:

1. لم يترك الكاتب بابا إلا وطرقه خدمة لقضيته السامية التي يعالجها.
2. من خلال دراسة رمزية المكان، وتسليطها على أرض الواقع فإن الكاتب حاول أن يعبر عن حقيقة واقع وطنه، وأن يوعي عقول القراء بها بعيدا عن التقريرية، والخطابية المباشرة.

3. يعمد من خلال حديثه عن الأماكن باختلافها، و شخصياته أن يجعلك ترى كل فلسطين من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، وأن يعمق لدى القارئ الانتماء الوطني، والتطلع الدائم لتحرير كل شبر من ترابها، واللهفة الخالدة للعودة إليها.

4. ذكر القرى، والبلدات، والمدن خاصة التي تعرضت للتهويد بمسمياتها القديمة هو إحياء لها، وإنعاش لمعاني الحرية، والطمأنينة، والخلاص من المحتل، وتأكيد على أن المحتل لم يستطع العبث بجماليتها في ذاكرة الفلسطيني، فما صعب الوصول إليه مكننا الكاتب من زيارته، والتجول فيه بعرضه له وبعثه من جديد، خاصة أنه يرتبط بالذاكرة الجمعية، وبالتاريخ الذي يسعى الكاتب لإظهاره، ومساومة المحتل به، وكيفية الحديث عنه تدل على حجم الحنين الذي عصف بالكاتب.

الفصل الثاني

الرموز المسيحية في الروايات المنتخبة

الرمز المسيحي

في خضم بحثنا عن الأثر المسيحي في روايات حسن حميد المتناولة، ورصد مظاهره، واجهتنا العديد من الرموز التي في أكثرها دينية تمثل صلب المسيحية، وتراثها، وبحسب ما رأت الباحثة كان لا بد من طرح سؤال مهم، والبحث عن إجابة عنه، تمثل في: لماذا لجأ حسن حميد إلى استعارة الرمز المسيحي وتوظيفه في رواياته؟!

وحقيقة بتوظيف الرمز يفقد العمل الأدبي عنصر الملل، ويمتعه بالتشويق، ويضيف عليه مظهرا من مظاهر الحداثة. إلى جانب ذلك فإن الرموز المستخدمة في الأعمال الأدبية تعبر عن المستوى الثقافي الذي يتمتع به الكاتب، وبيان قدرته على استنطاق الرموز، وحسن توجيهها يكشف عن براعته في المراوغة، وقدرته على تحميل معانيها معاني أكثر اتساعا، فانطلق منها إلى موضوع آخر، لكن ذلك يتطلب انتباها، ومؤهلات، ومعرفة، وثقافة؛ حتى نتمكن من تحليلها، ورصد دلالاتها على الواقع، عدا ذلك فإن استخدام الرموز المسيحية جعل الكاتب يبرع في خلق الفضول عند القراء.

وبالعودة إلى الرمز، فقد عرّف في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة على أنّه "مصطلح متعدد السمات، غير مستقر، حيث يستحيل رسم كل مفارقا معناه" (د.م، 1985، صفحة 101)، هو وسيلة فنية؛ انتشرت في كثير من الروايات الحديثة كونها تضفي جمالية على الرواية، وتجعلها غزيرة بالمعاني، والدلالات، والرسائل التي سعى الكاتب جاهدا لتحقيقها. وهنا يمكننا القول إن التراث لا يعني العودة إلى التاريخ بقدر الأفعال الإنسانية في المرجعية التاريخية، ومن ثم يكتسب الحاضر شرعيته من فاعليته في الماضي.

والرمز كان أداة لعرض قضايا الموروث الديني المسيحي التي آمن بها الكاتب؛ لبراعتها على تحقيق قصده وراء استدراجها؛ من هنا يمكننا تعريف الرمز بأنه "فن التعبير عن الأفكار، والعواطف ليس بصورة مباشرة، ولا بتعريفها بموازنات واضحة في صورة محسوسة، وإنما التعبير عنها بإعادة خلقها في ذهن القارئ بواسطة رمزية غامضة (أدونيس، 1972، صفحة 160). والرمز الفني له محددات جمالية ثلاثة، وهي (أحمد، 1984، الصفحات 136-138):

- المحدد الأول: إن الرمز يبدأ من الواقع ليتجاوزه ويصبح أكثر صفاء وتجريدا، ولا يتخلق هذا المستوى التجريدي إلا بتقنية الرمز.
- المحدد الثاني: إن الرمز ليس تحليلا للواقع بل هو تكثيف له.
- المحدد الثالث: إن الرمز من خصائص الأسلوب، وليس من خصائص الكلمات؛ أي هو قيمة سياقية تركيبية، وليس قيمة إفرادية.

كما جنح حسن حميد إلى تفريغ ما لم يستطع البوح عنه بالرمز، وتحديدا الرمز المسيحي، جاعلا منه معادلا موضوعيا في مواقف ذكره، وتنوعت رموزه بتنوع أفكاره وقضاياه، والتبس "الرمز" بمصطلحات أخرى تقاربه " كالعلامة والأيقونة" (بن عمر ، 2021، صفحة 6).

وفقا لدراسة الباحثة فإن حسن حميد من أبرز الكتاب الذين أفادوا من الرمز، وأدرجوه في رواياتهم، وتوظيفه ليس عبثا، والشاهد على ذلك كثرة الرموز التي وردت بين السطور، وانتقاؤها، وخصوصيتها، ورغم تشعبها إلا أنها بمسيحيتها البحتة مثلت مناحي كثيرة في حياة يسوع المسيح، وقد عمد الكاتب لاستخدام هذه الرموز؛ لتشارك المسيح والقضية الفلسطينية في السيرة، والألم، والعداء، والمحاربة.

إن تضمين الرمز بسلاسته، ووضوحه، وتمازجه بعناصر الرواية، ومكوناتها أبعدها عن الرتابة، ومنحها عنصر التشويق، وأضفى ثقافة مغايرة للثقافة المعتادين عليها عند الكتاب والقراء، وأسبغ عليها فكرا جديدا متماهيا مع أسلوبه، بطريقة متناغمة، لها ظلها الانسيابي، وفيضها الدلالي، خالقا تشاركا بينه

وبين القارئ؛ مما جعل التفاعل بينهما أقوى، عدا ذلك فإن إعادة تشكيل الرموز المسيحية، واستخدامها في روايات الكاتب جعله بارعا في خلق الفضول عند القراء.

المطلب الأول: الزيت[1]

من المؤكد أن استخدام الزيت رمزا دينيا مسيحيا مقدسا مكررا في الرواية لم يكن عبثا؛ بل لما له من قيمة خاصة في النفوس، وتأثير على العقول. وهو رمز فعال وفّق الكاتب في اختياره؛ كونه " يرمز إلى نعمة الله، ويستعمل في الكنيسة في سر العماد، كما يستعمل في تتويج الملوك والحكام، وتنصيب رجال الدين لمسحهم بالمسحة المقدسة" (فيرجستون، 1964، صفحة 64).

وجاء ذكره على لسان العجوز في رواية "جسر بنات يعقوب":

" هيا، هات الزيت من المعصرة، وتعال إليّ أباركه لك... وقبل أن يرتخي جسد يعقوب في أي مكان من البيت مضى إلى المكان الذي ذبح فيه الحمار ليلة أمس، ومعه إبريق الزيت الذي باركه في طريق عودته عند العجوز، وقرب بقعة الدم خلع نعليه، ودار حول المكان دورات عدّة، وهو يتمتم مغمض العينين، ثم دلق الزيت فوق الدم الذي ترك أثرا طريا معتما، كما دلق قسما من الزيت فوق المذبح، وهو يرجو ويتوسل: باركني يا رب، باركني" (حميد، 2002، الصفحات 85-95).

فيعقوب ممثلا عن اليهود لجأ إلى العجوز التي تمثل بريطانيا وأمريكا وغيرها من الدول الداعمة، وإن صح القول فإن العجوز التي تردد ذكرها في الرواية هي بريطانيا بعينها، وهذه الدول في أغلبها مسيحية لكنها في الوقت ذاته متصهينة، وقد عملت جاهدة؛ لتتخلص من اليهود، وتخلق لهم وجودا آخر في فلسطين، وبالطبع كانت داعما لهم وأحاطتهم ببركاتها، فجاء الكاتب بالعجوز نيابة عنهم، لاجئا لاستخدام أحد أهم رموز المباركة المسيحية وهو الزيت، فالعجوز أسبغت دولة البغالة حسب تعبير

[1] الزيت المقدس: الزيوت الثلاثة التي تباركها الكنيسة، وتستعمل في الرتب الطقسية، وهي: الميرون المقدس، زيت الموعوظين، زيت المرضى. (اليسوعي، 1998، صفحة 54).

الكاتب بروح القدس والحكمة والقوة، وباركتها مباركة عظيمة تمكنها من بسط نفوذها، وتمكين وجودها، وديمومة بقائها؛ لأن من يمسح بالزيت يدخل في التثبيت، وتحل عليه نعمة الخلود.

وفي رواية " الكراكي" أخبرنا عبودة، عند وصوله إلى الكنيسة أنّ "جرار الزيت بعضها يسند بعضها الآخر" (حميد، 2021، صفحة 873)؛ فكون الزيت أهم عناصر القداسة تمتلىء به الكنائس، ولا تخلو منه، و" الزيت في الكتاب المقدس هو رمز لروح القدس (مت، 1:23-13)، وجاء على لسان حنا: "وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء (يوحنا،2 :20)".

وتأتي قدسية الزيت من شجرة الزيتون المقدسة عندهم، وهو "علامة البركة الإلهية، ورمز لروح الله، ومن يمسح بالزيت يحلّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم والقوة، ويصبح ملكا لله، ولا ترفع عليه الأيدي. وكلمة المسيح نفسها في اليونانية تعني: ممسوح بالزيت؛ وهي رمز للمحبة ودخول النعمة الإلهية في سر المعمودية، والتثبيت، والكهنوت، ومسحة المرضى (1ش2:11، صم24:7، لو 10: 37- 25)"[1].

ولا يغيب عن أذهاننا أن عادة مسح المريض بالزيت موجودة عند اليهود قبل المسيحيين؛ فكانوا يمسحون الطفل بالزيت؛ لإضفاء القداسة عليه، وتردد ذكر هذه العادة في العهدين القديم والجديد؛ والهدف منها عند المسيحيين طلب الشفاء، والبرء من الأمراض، وهبوط القدسية على الممسوح (فتاح، 2000، الصفحات 128-131).

ويبدو ذلك واضحا في رواية "الكراكي" فجاء بالزيت رمزا؛ ليعطي الحياة معنى، ويبقي على ديمومتها، من خلال لسان عبودة الذي قال: "هنا، في هذه الكنيسة الصغيرة التي أجيء إليها الآن، ثمة راع طويل نحيل يدعى (طنوس)، هو أول من قرأ عليّ الكلام الطيب، وأول من مسح رأسي ووجهي بالزيت المبارك" (حميد، 2021، صفحة 777)؛ فعبودة الطفل عليل الجسد، الرافض للرضاعة، لم يكن من

[1] الإكليريكية المخلصية الكبرى.

والدته المثقلة بالحيرة من أمره والقلقة عليه إلا أن أخذته إلى الكنيسة؛ ليمسح الراهب (طنوس) رأسه ووجهه بالزيت؛ إيمانا منها بمباركته، وقدرته على الشفاء، وأن مسحة منه للسقيم تعيد له العافية، وأنها تريده خالصا لله محاطا ببركته، تصديقا لما جاء في (مرقس 14:3-9): " تمسح مريم قدمي يسوع كعمل امتنان وعبادة".

ويكرر مباركة مدينة القدس بالزيت، بذكره في "مدينة الله" عندما قال: " فأسلمنا قيادنا للعربة وللحصان... يمشيان بنا في شوارع القدس التي راح نثيث المطر يهمي فوقها لكأنه يد الله تمسح البيوت، والوجوه... بزيتها المبارك" (حميد، 2021، صفحة 440)؛ فلم يكن من الكاتب إلا أن يغمر المدينة الجليلة بالمباركة جاعلا المطر كالزيت؛ لأن في مباركته تمثيلا للرجاء، والخلاص من الاحتلال، وإحاطتها بروح الله القوية فلا يتمكن منها أحد، والكاتب إنما أراد من تعبيره المجازي " يد الله تمسح البيوت" أن يبارك الله هذه المدينة ببيوتها، وسكانها، وكل الأرض المقدسة حولها بالأمن والسلام، وأن يعم الهدوء، وتتخلص من دنس اليهود، فتعود لها بهجتها، وتعود طيور الحمام تغرد فوق سمائها وبيوتها وقبابها.

المطلب الثاني: القيامة[1]

يواصل حسن حميد استعارة الرموز الدينية بما يتماهى مع غايته؛ فيأتي "بالقيامة" في سياقين مختلفين، أولهما في "جسر بنات يعقوب"، عندما سأل يعقوب سليمان قائلا:

" بماذا يذكرك هذا النقر يا أخي؟

ألا يذكرك بيوم القيامة؟!

[1] مفهوم القيامة في التلمود الذي كتبه علماء اليهود والرهبان يوضح وجودها، ولكن في صورة مضطربة أقرب إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة، ويؤمنون أن الجنة تأوي إليها الأرواح الذكية، ولا يدخلها إلا اليهود، وأن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسيحيين والمسلمين. (وافي، 1964، صفحة 30).

فيقول سليمان عطارة مندهشا:

القيامة! وما دخل القيامة؟

...

علينا أن نوجه نداءنا يا سليمان؛ لكي تقوم قيامة الناس في هذه المنطقة" (حميد، 2021، صفحة 118).

بتوظيف الكاتب لمصطلح " القيامة" فإن الباحثة ترى رغبته في خلق صلة دلالية بين ما يجول في مكنونات نفسه، وما يريد إيصاله للقارئ، فلم يفصح عما يريده مباشرة، بل اختلق حديثا بين يعقوب وسليمان عطارة أوكل إليه مهمة إيصال الرسالة، و" القيامة" بعيدا عن كل التنبؤات، والتأويلات شملتها الأديان السماوية الثلاثة، فهي عقيدة تضمنتها الشرائع، مع فارق خصوصيتها في كل واحدة، ففي اليهودية تختلف عن المسيحية، وكلاهما يختلف عن الإسلامية، لكن ما يهمنا في هذا السياق رمزيتها ودلالتها، وكيف حوّرها الكاتب، وقصده منها.

عند التأمل في أسفار موسى الخمسة الحالية، والتي يطلق عليها اليهود التوراة وجدناها خالية من الحديث عن البعث والجزاء والجنة والنار (عبد الباري، 2004، صفحة 150)، وهذا طبيعي؛ لأن التوراة الموجودة التي يستند إليها اليهود، ويأخذون حججهم منها محرفة، وموسى عليه السلام نبي الله، فلا جدال بخلوها من رسالته؛ لأن الله أوحى إليه بتفاصيل العقيدة، وبين لهم الشرائع، ولكنهم لا يعترفون بها، ولا يؤمنون إلا بتوراتهم المزيفة.

وإذا تركنا أسفار موسى الخمسة، وتأملنا أسفار الأنبياء الذين جاؤوا بعده على حد قولهم، وجدنا أنّ هناك بعض الإشارات عن البعث والجزاء، فبعضها يذهب إلى أن المقصود بها العودة القومية لليهود، وانتصارهم على أعدائهم، والبعض الآخر يذهب إلى أن تلك النصوص مقصود بها البعث الأخروي (عبد الباري، 2004، الصفحات 150-151).

نستنتج مما سبق أنّ "القيامة" في اليهودية أمر مختلف عليه، فلا موقف محدد، ولا كلمة واضحة، ولا رؤيا حقيقية، وكل التخبط الذي بين أعيننا أساسه التلاعب في التوراة، وإعادة توجيهها بالطريقة التي يرتئيها العبرانيّون، أضف إلى ذلك أنّ نفسياتهم تلعب دورا فارقا في كيفية صياغة العقيدة بما يلائم مصالحهم وظروفهم وأطماعهم، فيعقوب عندما توجه لسليمان قائلا: "حين نوحد نداءنا وتقوم قيامة الناس"، أراد من القيامة الانتصار على سكان الأرض الأصليين، وقمعهم وإجبارهم إن بقوا على الخضوع له، وبالتالي خلق قومية يهودية في هذا المكان، وجعل الفلسطينيين مترقبين لما هو آت، يسامرهم الخوف والقلق والتوتر والعجز حينها سيتحقق للصهاينة المشردين الضائعين الذين لفظتهم كل بقاع الأرض مرادهم، وتروق لهم الأيام، فاختار حميد من القيامة معناها الآخر الذي تتبناه طائفة كبيرة منهم.

وحقيقة في هذا السياق عالج القيامة بما يناسب ربطنا إياها بالمسيحية فما ذكر يعقوب بالقيامة هو النقر الذي يقوم به أثناء عملية البناء، واليهود قد مارسوا هذا العمل أثناء تحضيرهم لصلب السيد المسيح، فالغدر واحد، والظلم واحد، والجاني واحد، فأعيد تكرار المشهد ولكن الضحية تختلف، وما صلبوا المسيح إلا في فلسطين، وها هم يعيدوا كرتهم مرة أخرى مع كل أبناء فلسطين.

وسرعان ما يأتي بها في سياق آخر "سأعترف لها بكل شيء إن عاد الجسد إلى قيامته مرة أخرى" (حميد، 2021، صفحة 763)، موردا " قيامة الجسد"؛ لينفي الرؤية والأمل الذي يعيش يعقوب لأجله، ويدحض أمنياتهم، فيستورد من المسيحية معناها؛ ليثبت أملا آخر، ووعدا محتوما لا مفر منه وإن طال الزمان.

ومن أسطرة القيامة في العقيدة المسيحية التي تغاير الأديان باعتبارها " تمجيدا واجبا بالمخلص نفسه، ولم تكن تمجيدا للمسيح وحده، بل كانت تمجيدا لنا أيضا، ويصبح جميع البشر مع المسيح، ومن أجل المسيح قائمين من الموت، أما إذا لم تكن هذه القيامة لبعض الناس قيامة للحياة والسعادة والأبدية فليس

الذنب ذنب الفادي لأنه سفك دمه، كل دمه إلى آخر نقطة من أجل الجميع، فالمسيح خلص المسيحيين بقيامته وصعوده، ولقد هزمت قيامة المسيح موت الجسد، ولا يخشى القديس (توما) أن يصرح قائلا: "كثير من الأسرار المسيحية يجب تأملها في المسيح، ولا سيما سر القيامة؛ لأنه على القيامة يترتب الدين المسيحي" (الأب فيليب الثالث، 1964، صفحة 54).

لذا فإن بواكير القيامة في أبها صورها، وعمادها تتلخص في قيامة المسيح، ورغم أسطرتها إلا أنها من وجهة نظر مسيحية تحققت. وتتجلى جمالية هذا الرمز في تعريفه لنهاية طريق الألم؛ أي الانتصار والحياة والمجد والخلاص والفرج؛ ومن هنا يطلق حسن حميد صوته محملا برسالة عظيمة لأبناء شعبه ألا تقنطوا من نصر الله، وأن ألم ومعاناة الشعب السائرين على درب النضال والتحرير مهما كانت فواجعهم ستعلن حتما قيامتهم، وكما كانت قيامة المسيح انتصارا على اليهود، وخلاصا من عذابهم ستقوم قيامتنا كقيامته، ونخلع رداء الأسى، وننتزع أجسادنا المصلوبة المقيدة، وأرواحنا المعذبة، ونطلقها عنان السماء.

ومن ناحية إسلامية لا شك في وعينا أن القيامة ركن من أركان الإيمان، وأنّ الكون كله مآله إلى الفناء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن:26]، ومهما بلغ جبروت الصهاينة مداه لا بد له من نهاية حتمية، فكل ليلة حالكة السواد يليها ضياء الصباح.

المطلب الثالث: الشموع

يبتعد حسن حميد في سرده عن الشعارات الصاخبة، والصراخ والعنفوانية، ويواصل بكل إيمان دعم قضيته، ويستمر باستمداد الرموز الدينية المسيحية، وما زلنا نرصد المزيد من الرموز المحملة بالإشارات والمواقف والأحداث، ويحملها قضيته منتزعا مكانا مرموقا ميزه عن باقي صفوف الأدب، وقد يجد القارئ غير المتمكن من أسلوب حميد صعوبة في الاقتراب من المعاني المرادة.

فقد حلّت الشمعة رمزا دينيا جديدا وظّفه الكاتب، فارق فيه بين السياق الأصلي الذي وردت فيه، والسياق الجديد الذي حلّت عليه. وقد وردت في (متى،13:5) بأنها: " تحترق وتذوب؛ لكي تعطي نورا للآخرين، وبهذا تعطينا فكرة عن المؤمن الذي يبذل ذاته في سبيل خدمة الآخرين، على السواء دون تمييز وفي صمت وهدوء".

أما من ناحية حضورها في الروايات المنتخبة، بالعودة إلى "الكراكي" يصف عبودة الكنيسة عندما ذهب إليها باحثا عن (ماريا) بقوله: "وصلت إلى الكنيسة، كانت ملأى بالناس، فانتبهت إلى أن اليوم هو عيد البربارة، ولا بدّ من أن أمي قد جاءت إلى هنا، فها هي الشموع الموقدة تبدو أقمارا وهي تنير جنبات الكنيسة" (حميد، 2021، صفحة 873)؛ فكما كانت الشموع تذوب، وتتلاشى لتمنح طريق الآخرين نورا، فإن الشهداء يتمازجون مع الوطن وترابه، ويقدمون أنفسهم؛ ليضيئوا الطريق ليس لشعبهم وحده، بل لأمة بأكملها، ورغم أن الفادي (الشمعة، المناضلين) هم وحدهم من يفنون إلا أن رسالتهم تكفي لإحراق أنفسهم من أجلها.

وترافق الشموع النساء في طقوسهن كافة؛ لإيمانهن بما تحمله من قداسة، فكن يصطحبن الشموع في ترحالهن، وتنقلهن من مكان لآخر، فتخرج نساء القرى إلى الأنهار مصطحبة شموعها "وبينما الشموع تماشي النهر وترافقه، تجثو النساء قبالة النهر تماما، ويشرعن بالدعاء الطويل، وهن على قناعة تامة بأن الدعاء سيجاب ما دامت الشموع سائرة على صفحة الماء، وموقدة... لم تنطفئ بعد" (حميد، 2021، صفحة 252).

ويذكر أيضا: " انتشرت في المكان روائح البهار والبخور والشموع والحناء" (حميد، 2021، صفحة 768)' فكما يعمّ البخور والشموع أرجاء الكنيسة، وطقوسها انتصارا بالمسيح ورسالته، وهزيمة من كادوا له وصلبوه، ستكون دماء الشهداء والجرحى، وأنّات الأسرى، وصبرهم، وعزمهم، وإصرارهم

جسرا نحو الحياة والأمل والحرية فيملؤون طرقات الوطن بالنصر، ورغم فنائهم إلا أنّ أثرهم بـــاق لا يمحى ولا يزول؛ وبذلك يتجلى البعد الوطني النضالي الفلسطيني بقوة رغم غموض الرمز.

المطلب الرابع: المغفرة[1]

بعض الرموز ذات رؤية دينية، وفي الوقت نفسه تواصل تأدية رسالة الكاتب، ومنها المغفـــرة، "لعلهـــا رأتني أحوم بروحي خارج الدير؛ لذلك أحسست أني أقترف خطيئة. فـــذهبت إلـــى الراهـــب (علايـــا)، وطلبت منه المغفرة، ركعت، وأخبرته بخطيئتي، فناولني جسد الرب، قضمت منه قطعة صغيرة، ذوبتها بلعابي، وخرجت، وأنا أسمع صوته يرن في أذني: ما أصفى قلبك يا بني! وكففت عن التفكير بهيلانـــة، وكنت كلما لاح لي طيفها في مفرشي أعطبه بالصلاة، وأستعيد طيف أمي، وطيف ذلك الرجـــل الـــذي كرهته، فأمحوهما... وأنام" (حسن ، 2003، صفحة 229).

واللافت للانتباه أن الكنائس منحت أنفسها "الحق في أن تعفو عن الخطايا، وتمحو الذنوب عن المذنبين؛ بحيث أعطى الرهبان لأنفسهم سلطة مطلقة لغفران ما تقدم من الذنوب وما تأخر منها" (عوض، د.ت، الصفحات 44–50). ويعدّ سر التوبة، والاعتراف، وطلب الغفران الكنسي أحد أسرار الكنيسة الســـبعة المقدسة، وعن طريقه ينال العديد من الاستحقاقات، والامتيازات خاصة: مغفرة الذنوب ومحو الخطايـــا، والتهيئة للدخول في نعيم ملكوت السماوات على يد كاهن الاعتراف الكنسي غـــافر الـــذنب والخطايـــا (عباس، 2016، صفحة 59).

وشتّان ما بين الخطايا المقترفة التي تتطلب غفرانا في المسيحية، وبين خطايا بني إسرائيل فلا خطيئـــة لهم سوى إحساسهم بالشعوب الأخرى؛ فاليهود في اعتقادهم وفكرهم أن جميع البشر باستثنائهم أشـــرار، ومجرد الإحساس بهم جريمة، وأن " كل ما يمس الشعب المختار بسوء هو خطيئة في عرفهم؛ وأمـــا إذا

[1] قال الإمام محمد أبو زهرة: إن يسوع المسيح ما كان قلّد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا الســـلطان الـــذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى.... وهو سلطان مسح الذنوب وغفرانها مهما يكن مقدارها، ومهما تكن قد دنســـت الـــنفس، وأرهقـــت القلب. (أبوزهرة، 2020، صفحة 229).

كان الأمر في صالح الشعب المختار فهو خير محض" (عوض، د.ت، صفحة 8)؛ فمهما فعل بنو اليهود لا خطيئة تستحق طلب المغفرة، ومن المتعارف عليه أن اليهود قوم قلوبهم غليظة، وهي طبيعة فطروا عليها منذ العهد القديم، فقد حاربوا المسيح عليه السلام، ومن ثم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه جبلتهم قبل أن يتصهينوا، فكيف بعد أن أصبحوا صهاينة، وتنصلوا من التوراة وحرفوها؟!

ومن هذا الرمز نستشف رغبة الكاتب خلق مقارنة بين الشخصية المسيحية واليهودية، وطمعه في إظهار إنسانية الشخصية المسيحية، والانتصار لها بدعوى عدم قدرتها على الاستمرار في اقتراف الخطيئة، مثلما حصل مع شخصيات الرواية في ترددها على الكنيسة، واعترافها للرهبان بخطاياها، ولجوئها إلى طلب الغفران، والتزامها به مهما صغر الذنب، على العكس من الشخصية اليهودية التي ظهرت بكل قسوتها واستبدادها، وسلبها ممتلكات الغير بالباطل، والتزوير والخيانة والإجرام، وانعدام الإنسانية، فجمعوا كل الصفات القبيحة فيهم، ويعقوب وبناته وأعوانه خير برهان لرؤية الكاتب، خاصة إصرارهم على اقتراف الذنوب وإيمانهم بحقهم في كل ما يفعلون، وعدم طلبهم للمغفرة وإرضاء الرب جعلهم يتمادون في طغيانهم وفسادهم، وأصبح وجودهم بمثابة وباء منتشر.

المطلب الخامس: الكراكي

"الكراكي" الطائر ذو الأبعاد الرمزية والدلالية، يحضر بعمق في إحدى روايات حسن حميد، بل يجعل منه عنوانا لروايته " الكراكي". وبعنونة روايته به جعل منه رمزا ذا شيفرة، يطمح القارئ في فكها، فيشده إلى روايته؛ ليقلب صفحاتها بحذر شديد. و" الكراكي" أحد الطيور ذات الخصوصية في الديانة المسيحية؛ كونه يرمز إلى " السهر والإخلاص والحياة الطيبة، ومن الأساطير عن هذا الطير يقال: إنه في كل ليلة تجتمع الكراكي على شكل حلقة، وتنتخب بعضها للحراسة، وهكذا يظل ساهرا طوال الليل لحراسة إخوانه" (فيرجستون، 1964، صفحة 94).

ويرمز طائر " الكراكي" إلى المحبة والنقاء والشوق والحنين والذكريات والسلام والأمان، والوطن الذي يسمو بمعناه فوق كل المشاعر، ويتواجد هذا الطائر كما جاء في الرواية في قرية الصبيرات ذات الطبيعة الريفية التي يغلب على قاطنيها اعتناق المسيحية، ويشكل "الكراكي" واحدا من رموز طبيعتها الساحرة، يقول الكاتب: " وهذه الدانية البادية هي طيور الكراكي، تتقدم دونما خوف أو خشية، جميلة ملونة كما لو أنها قطيع من الدهشة الآسرة" (حميد، الأعمال الكاملة، 2021، صفحة 68).

وفي اختياره لهذا الطائر المميز بترحاله، وعودته الدائمة إلى موطنه أراد حسن حميد القول إننا رحلنا، وهجرنا لكن رحيلنا كان قسرا لا طوعا، ولكن لا بد لنا من عودة كعودته، نبدأ من جديد، ونعوض الأيام الحالكة، وهنا يبعث الكاتب برقية للمحتل يخبره بزواله الذي أصبح وشيكا، وأن نهاية ظلمه وجبروته بدأت تلوح في الأفق.

إضافة إلى ما سبق فإن طيور "الكراكي" تحمل رمزا مكانيا يتمثل بتواجدها قرب بحيرة طبريا، فتأتي إليها في كل موسم، وتبني أعشاشها وتسكن فيها؛ فلا شك أن ربط هذا المكان مع "الكراكي" يأتي للدلالة على أن فلسطين مسكونة من الفلسطينيين منذ قبل التاريخ مثلما سكنها الكراكي، وبعودة "الكراكي" إلى موطنها مهما طال سفرها يجعلنا على يقين بنصر فلسطين، والعودة إليها كلها.

ويتضح ذلك بما جاء على لسان عبودة عن أمه هدلة: "ومضت نحو الداخل لتخبرني بأن طيور الكراكي جاءت بالربيع والمطر، وأنها تحيط بالبيت وكأنها خراف" (حميد، 2021، صفحة 771).

ترى الباحثة أن الكاتب طمع من هذا الرمز أكثر مما سبق، فلا مفرّ من رغبته في الإشارة إلى نفسه باعتباره صورة مصغرة عن طائر "الكراكي"، ولا بدّ له من عودة سريعة دائمة إلى الوطن، فالتقى به في خياله أكثر من عيونه، وكتبه بدم قلبه أكثر من حبر قلمه.

المطلب السادس: التطويب

إن الاستمرار في اكتشاف الرموز المسيحية في روايات حسن حميد يشكل فضولا عند الباحثة؛ لكثرة تضمينها، واختلاف القضايا التي يتناولها كل رمز عن الآخر، و" التطويب" أحد الرموز المستخدمة في الرواية الغنية بها " الكراكي"؛ ففي هذه الرواية أبدع حسن حميد في اقتباس الرموز المسيحية، وبرع في طريقة توظيفها.

و"التطوييات": هي أقوال يسوع المسيح التي جمعها (متى ولوقا) في مستهل العظة على الجبل، تتناول كل منها عبارات قديمة تعد بملكوت الله؛ أي السعادة لمن استوفوا شروطا معينة كالتجرد عن المصلحة والتواضع والرحمة... وتتلخص جميعها بالمحبة، وتدعو إلى مثال أعلى، وهو الحياة حسب الإنجيل" (اليسوعي، 1998، صفحة 148).

وهناك أربع طرق –على الأقل– يراها المسيحيون لفهم التطوييات (د.م، التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، د.ت، الصفحات 1880–1881):

1. إنها دستور أخلاقي للتلاميذ، ومعيار للسلوك لكل المؤمنين.
2. إنها مقارنة بين قيم الملكوت الأبدية، وقيم العالم الوقتية.
3. إنها مقارنة بين الإيمان السطحي، والإيمان الحقيقي الذي يريده المسيح.
4. إثبات أن كل انتظارات العهد القديم ستتم في الملكوت الجديد.

نستنتج مما سبق أن للتطوييات قيمة تأثيرية كبيرة في النفوس؛ كونها تخاطب العقل والقلب كليهما، ويرى المسيحيون بأن "التطوييات" هي في القلب من كرازة يسوع، وإعلانها يعينها ما قطع من مواعيد للشعب المختار منذ إبراهيم، ويكملها بتوجيهها لا إلى التمتع بالأرض فحسب بل إلى ملكوت السماوات" (د.م، د.ت، صفحة 516).

لعل وقوفنا عند قول الكاتب: "لم يتبق له سوى يوم واحد ليطوب خالا جديدا على قرى المنطقة ليكون هو مبروكها، وأن الدلائل تشير إلى أن الخال طفل ولد في الصبيرات، وأن أمه حالت بينه وبين تطويبه، ولا بد من البحث عنها وعنه، ولا بدّ من إيجاده وإلا هلك الناس والحيوانات والشجر، وصارت القرى خرائب... الأحياء زاحموني عليك؛ ليتبركوا بك، والمرضى زاحموني عليك؛ ليشفوا، والعاشقات زاحمنني عليك راجيات باكيات..." (حميد، 2021، صفحة 779).

نستشف رغبة حسن حميد عودة "التطويبات" في وقتنا الحاضر، وحاجتنا إليها، فاليوم يعيش المجتمع حياة هشة، وغير متوازنة روحيا وفكريا، وعدم القدرة على تحقيق سعادة حقيقية داخلية وخارجية، حتى إن ضمير الناس أصبح خارج الخدمة، فقد ولوه جانبا، وتخلوا عنه في سبيل تحقيق مقاصدهم بغض النظر عن أذية غيرهم، فيبدو أن حميد مقتنع بما أورده، وبما أن هذا الفكر مثل جزءا لا بأس به وتكرر تضمينه في أكثر من موقف فهو يؤمن بتلك الجزئية من العقيدة.

لذا يرى الكاتب أن الحاجة للتطويبات تأتي من إسهامها في خلق نفوس سوية، وسعيدة، وبعيدة عن الاضطرابات النفسية؛ مما ينعكس أثره على المجتمع والناس، من هذا المنطلق كان الخال يسعى بإصرار باحثا عن الطفل الصغير(عبودة)؛ ليطوبه، فعكس إيمان المسيحيين وعقيدتهم، وصورة حياتهم الطبيعية الاعتيادية.

لكن رفض هدلة إخراج ولدها للخال، وإخفاءه عنه يدل على أنها قد تكون غير مقتنعة، أو خائفة على ولدها من هذا التطويب الذي يكلفه حياته التي سيفنيها للناس، وربما لا تؤمن كثيرا بهذا الأمر، وبرأي الباحثة هذه هي الكفة الراجحة فهي ليست راهبة، ولا متمكنة بشكل واف من الديانة فحالها كحال بقية الناس، وكثيرا ما تتشابه الأمهات مع هدلة، فكم من أم حاولت منع ولدها من الالتحاق في دروب مواجهة المحتل؛ خوفا عليه، وخشية من فقدانه رغم يقينها بأن النضال حق من حقوق الوطن على أبنائه.

المطلب السابع: الملح[1]

يعاود الرمز الديني المسيحي التألق من جديد، ويتمثل هذه المرة في "الملح"، وقد سبق أن خاطب المسيح تلاميذه قائلا: "أنتم ملح الأرض، ونور العالم، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح، لا يصلح إلا بعد أن يطرح خارجا ويداس" (متى، 13:5).

وبعبارة: "ملح الأرض"؛ فقد عرف المسيح أبناء جلدته، ومنحهم جواز سفر يرافقهم أينما حلّوا؛ وبذلك فهو يقدمهم كقدوة صالحة للعالم، بتصرفاتهم وأخلاقهم وإيثارهم من حولهم على أنفسهم، وإن اقترفوا الخطايا فلن يكونوا نور الله وحينها مآلهم إلى فساد.

وبالعودة إلى "مدينة الله" وظف الملح أثناء سير المسيح في طريق الآلام: "من هذه الشرفة رشت بنات القدس الملح على سيدنا؛ كي تكوى جروحه؛ كي تشفى..." (حميد، 2021، صفحة 450)، فاتخذ الملح وسيلة لتطهير جروح المسيح، وتعقيمها، ومساعدتها على الشفاء من ناحية، وليحفظ من الوقوع في الخطأ؛ لقسوة الألم من ناحية ثانية فكانت وسيلة تعمدت سيدات القدس استخدامها؛ لقناعتهن بجدواها في معالجة الروح كما الجسد.

إن تدعيم الكاتب روايته بهذا الرمز يشير إلى ما يحصل في العالم، ومدى حاجتنا لشخصيات مؤمنة معمدة مطهرة تلتزم بالعقيدة وتسير عليها؛ لذا فالملح من وجهة نظر مسيحية يعمل مؤثرا داخليا يهذب النفوس ويربيها ويقوّم اعوجاجها؛ من هذا المنطلق رأى حسن حميد ضرورة عودة هذا الرمز وأن نكون ملح الأرض؛ لنتعافى من الخطايا التي أفقدت أرواحنا نزاهتها، فأصبح نضالا مشوبا وداخلته بعض الخطايا التي أفقدته في بعض الأحيان قدسيته، ولن نتمكن من تحقيق ما نريد إلا بالعودة أنقياء وأتقياء.

[1] منه ملح الحكمة وهو أول طعام مقدس يتناوله المقبل على المعمودية، فيزيل عنه تفاهة الخطيئة، ويمكنه من تذوق الله. (اليسوعي، 1998، صفحة 480).

واعتبر الملح منذ قديم الزمان وسيلة لصون العشرة، فكثيرا ما نقول بالعامية: " بينا خبز وملح"؛ أي أننا تناولنا طعاما معا، مما جعل لرابط العلاقة خصوصية أقوى؛ وبالتالي يجب ألا تهون، وعن ذلك يأتي الكاتب بالحوذي (جو) ذاكرا هذه الشعيرة واصفا إياها بالممالحة: " المرأة تتقدم نحونا، وبين يديها طبق من القش عليه رغيف من الخبز تدنيه منها أكثر، وابتسامتها مشقوقة مثل كتاب، لكأن وجهها والرغيف ضفتان، فنمد أيدينا نحو الرغيف، تأخذ سيلفيا) قطعة منه وتأكلها، وهي تهمهم راضية، وآخذ منها قطعة أخرى وآكلها... يا لهذا المذاق الصباحي اللذيذ، ونشرع بالتهامه، ونمضي شاكرين، يهمهم الحوذي (جو): هذه ممالحة" (حميد، 2021، صفحة 477).

المطلب الثامن: الخبز

عند تقليب صفحات الرواية نلاحظ استمرار استلهام الرموز الدينية المسيحية، فأتى " بالخبز"، الذي تنبعث قدسيته من قول المسيح كما جاء في(يوحنا،51:6): " أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم". فأتباعه يرون أنه وصف جسده بالخبز المتناول؛ مما جعل للخبز عندهم تقاليد وطرقا خاصة لصناعته وتناوله، وكما جاء في دينهم أنه كان العشاء الأخير للمسيح، حيث تناول خبزا ووزعه على تلاميذه فأكلوه.

من تلك القدسية جاء تقبيل الخبز عندهم؛ ففي الرواية: "جاءت ربيحة للدير؛ لتعترف للراهب بالندبة التي رافقتها بعد قضائها ليلتها مع دعموش، وأنها أم (غطاس) الذي يعيش في ميتم الدير، وعندما حانت لحظة الحديث وطلب المغفرة طلب منها الراهب الانتقال إلى حجرة الاعتراف، وقبل البدء ناولها قطعة من الخبز، بدت متعبة، مرهقة، مصفرة اللون، لا شيء في صوتها سوى رنة الألم... أومأت إليها ثانية أن تجلس، فجلست راكعة، وناولتها قطعة من خبز الدير، ثم طلبت منها أن تقضم لقمة من خبز الدير " (حميد، 2021، صفحة 212)، وبعد أن أزالت بأسها بالاعتراف، وأفرغت حمولتها من الهموم بالكلام،

ودنت من درب المغفرة " نهضت تقبل الخبز، وتمسح على آنية الشراب بأصابعها الطويلة الناحلـــة..." (حميد، 2021، صفحة 215)[1] ومن ذلك نستشف أن الخبز رافق معظم طقوسهم.

والخبز في الكتاب المقدس "ما يعيش به الإنسان ويقويه؛ وتدل وفرة الخبز على البركة؛ ويـــدل افتقـــاده على أسفل درجات البؤس، والخبز المقدس أرغفة توضع أمام الرب؛ أي على مذبح الهيكـــل، وتكثيـــر الأرغفة إحدى معجزات يسوع" (اليسوعي، 1998، صفحة 200).

المطلب التاسع: الصلاة

تمثل الصلاة شريان الحياة عند أصحاب الديانات، ومنهم المسيحيون، فيها يقوي المؤمن إيمانه، ويبعـــد عن الضلالة، ويتخلص من الاستهتار حتى بصغائر النعم، وهي بمثابة وسيلة شكر لله، وتقرب منه، فالله يسمع لعبده في صلاته أكثر من أي نسك آخر؛ لشدة القرب منه في هذا الموقف، فتنشأ بينهمـــا علاقـــة متينة، فيخرج منا ما يتعب أرواحنا، ويرشدنا إلى ما يهدي سبيلنا، ويخلصنا مـــن حيرتنـــا، ويبقـــى الله حاضرا أمام ناظرنا، فالصلاة في معجم الأديان المسيحية وردت باعتبارها " كلّ اتصال للـــروح بـــالله لالتماس خير منه أو لتسبيحه أو لشكره أو للتواضع أمامه" (اليسوعي، 1998، صفحة 298).

عدا ذلك أكد يسوع على " أهمية الصلاة وعمق فعاليتها، وأنها تلبية محبة لنـــداء الله المحـــب، وليســـت الصلاة في الأساس تمرينا، بل هي روح، وديناميةحياة أساسية، ومناخ معين للنفس، يتيح لنا أن نجـــد الله في كل شيء" (أوليفييه، 1994).

وتتعدد صور الصلاة عند المسيحيين، وتختلف بمضمونها، وتراتيلها بـــاختلاف الغايـــة منهـــا، ولكـــن اعتبارها امتيازا عظيما مقدسا ممنوحا لهم هو الجوهر الذي يجمعها، وقد ألفت كتب شتى تضـــم هـــذه الصلوات، وأطلق عليها " كتاب الصلوات"؛ حيث جاءت في الرواية في قول(فلاديمير) متذكرا مدينتـــه دبلن التي يرى فيها القدس: " وفي كل صباح ينفتح أمامي كتاب الصلوات والمحبة، وكتاب الصبر الذي يعيش معانيه الناس، وقد صارت المكاره التي أصابتهم أذيات وندوب، ومواجع أبدية... دائما وفي كـــل

صباح أسأل ذراعا أو سياجا أو قميصا أو سيفا أو كلمة تحمي هؤلاء المظلومين، أهل الأرض؛ كـــي لا تموت المحبة، ولا يموت السلام... أصارحك بأن وجودي هنا راح يشعرني بقيمتي، بإنســـانيتي؛ كـــي أناصر أهل سيدنا الناصري" (حميد، 2021، صفحة 415).

يتبين من رسالة (فلاديمير) لصديقه أنه كلما سار في شوارع فلسطين، وفي القدس تحديدا صلى من أجل مدينة يسوع الناصري، صلى من أجل أن يعم السلام، صلى من أجل الأطفال والشيوخ والنساء، صـــلى من أجل رفع الظلم عن المظلومين، صلى من أجل دموع المكلومين، وحسراتهم، فبالصلاة يطلب مـــن الله النصر لهم، وأن تبقى كنائسهم ومساجدهم ملكا خالصا لهم، عزيزة شامخة كشموخهم، فقد جاء فـــي (متى، 8:7): "كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له".

مما يثير الدهشة أن التبريكات في الدين المسيحي صلاة لها غايتها، " ترافقها حركـــة إشـــارة الصـــليب يستنزل بها عطف الله على شخص أو شيء أو مكان، كتبريك مـــاء المعموديـــة والبئـــر والمائـــدة..." (اليسوعي، 1998، صفحة 135).

فعندما سأل (فلاديمير) الحوذي عن قرية الرامة التي تجسدت على هيئة لوحة فنية بجمالهـــا ومحبتهـــا وكرمها، أجاب الحوذي (جو): " إنها المباركة التي اعتادوها، فحين جاءهم سيدنا كانوا فقراء، لم يعطوه شيئا سوى أن امرأة عقدت في رسغه خيطا من الفتل الأسود، وعجوزا سقاه حليبا مـــن حليـــب ناقتـــه الولود، وصبية قدمت له إكليلا من الورد، فقال لهم هذه مباركة مقدسة سأصونها، واليـــوم... هـــا هـــم يقدمون هذه الأعطيات؛ كي تظل المباركة مقدسة مصونة"، وخلال مسيرهم سرعان ما يعترضهم جنود من البغالة، فكأنهم بتعكيرهم صفو (فلاديمير) وسائقه أفسدوا المباركة التي طالما استشعروا قيمتها.

الفصل الثالث

الحكايات المسيحية في الروايات المنتخبة

شكلت الحكاية نمطا سرديا، ومرتكزا معرفيا فارقا في الروايات، والعمل السردي الروائي عامة هو حكاية، بمعنى "أنه يثير واقعة؛ أي حدثا وقع، وأحداثا وقعت؛ وبالتالي يفترض أشخاصا يفعلون الأحداث، ويختلطون بصورهم المرئية مع الحياة الواقعية" (العيد، 1990، الصفحات 41-43)، ولا تخلد الحكايات إلا بوساطة الكتابة، وتستوجب وجود راو يرويها، وقارئ يقرأها. ولا تخلق إلا ضمن أقوال، وأفعال، وأحداث تتوالى بطريقة ما، تبعا لمنطق معين، وهي عند (جيرار جينيت) " تدل على المنطوق السردي؛ أي الخطاب الشفوي أو المكتوب الذي يضطلع برواية حدث أو سلسلة من الأحداث الحقيقية أو التخييلية" (جينيت، 1997، صفحة 35). والحكاية أقرب ما تكون إلى القصة، وتحمل معناها، وفي الروايات رغم طول الحكايات في بعض الأحيان إلا أنها حافظت على المتعة والتشويق، وكان ردها مفعما بالحيوية.

عادة ما تتداول الحكاية بطريقة شفهية، وهذا ما لاحظناه من الحوار الذي بين الشخوص، وكيف سردوا حكاياتهم، فأصبح مخبر الحكاية كما الحكواتي يأسر محاوره بجمال حكايته وندرتها، ومن خلال الحكاية يحدث الكاتب صلة بين ما يصدر من راوي الحكاية، وما هو واقع، فنراه يتخذ من الحكاية جذورا يبني عليها القول فيما بعد، ويضطلع منها بأفكاره التي ينوي إيصالها للقارئ، وبطبيعة الحال ستتدرجنا الحكايات عند قراءتها إلى ما ذكرناه.

تواصل الرموز الدينية المسيحية حضورها في الروايات، ومن أكثرها ورودا حكايات الكنيسة والدير بما فيهما من رهبان، وراهبات، وغواية، وغيرها من الأمور التي تتعلق بهما.

بداية لا بدّ من الحديث عن الرهبانية، وهي نسك موجود منذ القدم، وعلى اختلاف الأديان والطوائف، واتخذت من العزلة عن العالم أمرا مطلقا لا جدال فيه، لكن معناها تعمق وانتشر عندما جاءت

المسيحية، والرهبانية إذ "هي طريقة المعيشة المنعزلة عن الناس في خلوة فردية تامة بقصد العبادة" (د.م، 2018، صفحة 12). أما في فلسطين قامت الرهبنة على يد الراهب (هيلاريون)، وكان من أهل غزة، وولد بها عام (291) م، وتلقى تعليمه ليعيش حياة النسك، وانتشرت الرهبنة بعد أن مهدت لها جماعات اشتهرت بتنسكها أطلق عليها (أبناء وبنات القيامة) فنشرت الرهبنة في كثير من فلسطين، ووجدت الكثير من القلالي في مدينة أورشليم (عجيب، 2004، صفحة 79).

وحقيقة فقد أكثر الكاتب من توظيف الرهبان والراهبات وحكاياتهم، وشغلت الأديرة والكنائس حيزا كبيرا تجري فيه الكثير من الأحداث والحكايات، فأفرد الكاتب فصولا خاصة معنونة بهم. ثم إن الدارس والمطلع على موضوع الرهبنة سيدرك أن الدين لم يكن عاملا رئيسا في وجودها واللجوء إلى الأديرة، والانقطاع عن الخارج لأجلها، بل دفعت أسباب عديدة إلى اعتناقها، ومن خلال قصص الرهبان، والراهبات والقائمين على شؤون الدير الواردة في الروايات المنتخبة نستكشف بعضا منها، فمثلا بالعودة إلى ظروف انتقال الأب (طنوس) إلى الدير فقد وضحها الراوي بقوله: " ولأن حياة الأب (طنوس) كانت صعبة منذ أن فقد زوجته... فقد التحق وابنته الصغيرة بخدمة الكنيسة، كان يعمل في متجر يبيع الأدوات النحاسية للزوار والحجاج؛ ولأن ما كان يأخذه من أجر لا يكفيه فقد مضى إلى الكنيسة. الكنيسة علمته كل شيء، الكنيسة أعدته ليكون راعيا، وقد تنقل و(ماريا) من كنيسة إلى كنيسة..." (حميد، 2021، صفحة 823).

فحكاية اتخاذ (طنوس) من الرهبنة أسلوبا لحياته كانت لوجود ضائقة مادية مر بها، وهذا يدل على أن الوضع المادي، وتردي الظروف المعيشية، وعدم القدرة على سداد التزامات الحياة، وتوفير متطلباتها كان دافعا لاختياره حياة الكنيسة؛ " فالأحوال الاقتصادية كانت من الأسباب الواضحة لذيوع الرهبانية بين المسيحيين، وهذا يدل على أن الرهبنة المسيحية لم يكن الباعث عليها الدين المسيحي، وأنها لم تكن مطلوبة من المسيحيين، وإنما تتدخل الظروف الاقتصادية لتجعلهم يترهبون إذ إنها كانت هربا من دفع الضرائب المقررة عليهم من قبل السلطات" (عجيب، 2004، صفحة 67).

وتتضح الرهبانية بصورة أكبر في قول حبيب سعيد: " وهناك عوامل أخرى أدت إلى ذيوع الرهبانية، ألا وهي انسياب روح الفتور في حياة الكنيسة بعد أن اتسعت دائرتها، ودخلها أناس ذوي الميول الفاسدة، وقد رام بعض المسيحيين أن ينجوا بأنفسهم، ويسعوا إلى خلاصها بالاعتزال عن العالم، وإذلال رغبات الجسد، وكانت الفكرة السائدة أن المادة هي أصل كل الشرور، والجسد جزء من المادة، فلا مناص إذا من قمعه وإذلاله؛ لكي تنطلق الروح من قيدها الجسماني، كما يعتقدون إلى رحاب الهيام الروحي" (حبيب، د.ت، صفحة 174).

ولعلّ أغرب الحكايات التي جاءت في رواية " جسر بنات يعقوب" حكاية الراهبات اللواتي كن على هيئة رهبان؛ " فما من أحد في قرية الشماصنة يعرف شيئا عن الراهبات في الدير، الجميع يعرفون أن الرهبان الرجال يقومون على شؤون الدير، يتغيرون بين حين وآخر، وأن عددهم يزداد أو يتناقص وفقا لمعايير يعرفها الرهبان أنفسهم" (حميد، 2021، صفحة 30)، فلكل واحدة منهن حكاية تختلف عن الأخرى، أخفتها كما أخفت معها أنوثتها، ولكل واحدة سر لم ترغب أن تكشفه لأحد.

والقول السابق يتفق به الكاتب مع حبيب سعيد، فقد عرض الكثير من قصص الراهبات والرهبان الذين فروا من حياتهم الملوثة بالخطايا إلى الدير؛ في محاولة لإصلاح نفوسهم، والتكفير عن خطاياهم، ونيل المغفرة، والواقع حقيقة تجاهل الرهبنة للحكمة، والفطرة الإنسانية، وإقصائها طبيعة الإنسان التي فطر عليها؛ لذا حتى بعد العيش داخل الكنيسة لمساعدة الروح والجسد على شفائهما مما اقترفاه، وحكاية هيلانة خير برهان إذ لم لم تستطع (هيلانة) نسيان عطايا، فجاء على لسانه: " صارحتني (هيلانة) بمحبتها، قالت لي إنها في الليالي الأخيرة حاولت كثيرا أن تصدّ عني، أن تهرب مني، أن تبعد صورتي عن خاطرها، لكنها لم تقو، كانت صوري تجول بين عينيها... مرات عديدة جاءت إلى غرفتي ليلا مكان نومي أرادت اقتحامي... صارحتها بأن قلبي يخفق لها منذ رأيتها، وما الدير سوى ستارة شفيفة تبعدها عني، وأني مثلها تماما، ذهبت إليها مرات عديدة في الليل والنهار، حوّمت طويلا حول غرفتها مثل طائر ضلّ عشّه..." (حميد، 2021، صفحة 231).

وهذا أمر طبيعي يتلاءم مع كون القائمين على شؤون الدير أناسا عاديين كغيرهم، لهم مشاعر، وأحاسيس وحاجات، ورغبات، وأجساد لها شهواتها التي تتلاءم مع الطبيعة البشرية التي جبلوا عليها. هذه الأسباب هي التي جعلت الكاتب يقدم (هيلانة) وعطايا بهذه الصورة، وأنهم حاولوا التنصل ولو خفية، وفكروا مرارا في الهروب من الدير، والتخلص من طرق حياته وقيوده " خرجت من الدير لأجلها، وخرجت هي من الدير لأجلي" (حميد، 2021، صفحة 30)؛ فالإفراط في كبت النفس، وجمح رغباتها جناية عليها، وإهدار لحق من حقوقها، فالتبتل[1] مرفوض في جميع الأديان، وعلى الإنسان أن يوازي بين حياته ودينه، ولكن للأسف الرهبنة ترفض هذه الفطرة، وتفرض البعد عن النساء، ومتع الحياة خشية الوقوع في الرذيلة، حتى الزواج حسب اعتقادهم "هو المعوق للوصول إلى الطهارة الداخلية والكمال الروحي" (سكريما، د.ت، صفحة 30) ففي ذلك طهارة، وقرب من الله حسب رأيهم، وحفاظ على الجسد؛ لأنه بؤرة الرذائل وأساسها.

وتأتي حكاية (ماريا) تدعيما لما سبق، فقد لجأت إلى الدير لتخلص جسدها من الرذيلة: " هنا في هذا الدير النائي الجميل حاولت قتل شهوة الجسد بالعمل والصلوات، والركض والسجود والركوع، وبالإماتة والنذر والطاعة والعفة... لكنني لم أستطع نسيان دعاس، كان معي في مأكلي ومشربي، وفي قيامي ومضجعي، طيفه يلازمني رغم قساوته ونذالته... اقتنعت بأن ألمي وعذابي في جسدي، وأن جسدي هو بؤرة الرذائل، ومحرقة الأحزان وجمرها، واختليت بنفسي مرات ومرات، وسألته الخلاص" (حميد، 2021، صفحة 37).

فاعتقد المسيحيون أن التجرد من متع الحياة وسيلة للتكفير، وطريق للمغفرة، وتلبية لأوامر المسيح، لكن المسيح لم يدع إلى الرهبانية؛ لأنه لا يقبل أن تعذب النفوس، ويجنى عليها، فكل ما أحلّ الله من طيبات وجب التمتع بها مع عدم تعدي حدود الله، وفي كثير من حالات تنصلهم من الدير، وخروجهم منه لم

[1] التبتل: عدم ممارسة العلاقات الجنسية (عاشور، 1983، صفحة 163).

تسعفهم الحياة خارجة، وسرعان ما يعودون إليه رغم قساوته " لكن الحياة المرّة أعادتني إلى الدير تماما كما أعادتها هي... أيضا" (حميد، 2021، صفحة 231).

وتوافق قصتهما قصة عوّاض الذي جاء إلى الرهبنة مرات عديدة، وانقطع عنها مرات عدّة أيضا، أحبّ الحياة فأنكرته؛ فعواض كغيره يرغب بالحياة، وتحلو بعينه، لكن الحياة لم تتح له أن يتذوق حلاوتها، وأجبرته على المجيء إلى الدير، والعيش فيه، وعن ذلك يقول: " كان الدير ملاذي رغم وحدته الشاسعة، ورتابته الموجعة، وصمته الرهيب... موحش الدير من دون ناس" (حميد، 2021، صفحة 234).

حتى الأب (طنوس) الذي ذهب للدير برفقة ابنته لم يكن ذهابه تدينا؛ وإنما لأن الحياة أوجعته، وأخذت منه زوجته، فقسوتها هي من ساقته إلى الدير ليصبح فيما بعد الأب له، ورغم كبر سنه، وتدينه، وما بذله من جهد لمساعدة الناس إلا أنه حينما التقى بهدلة لم يستطع كبت مشاعره وأحبها، وتردد على بيتها يوميا، فوجد فيها عوضا عن الحنان الذي فقده منذ زمن، يقول عبودة عنهما: " تنظر أمي نظرة الخوف، تتوقف عن الكلام، فيربّت الأب (طنوس) على كتفيها، وهو ينظر إليها بإشفاق" (حميد، 2021، صفحة 771).

وفي موضع آخر من الرواية: " في المساء، وقد تدلّت الشمس مدموغة نحو شبكة من الغيوم البرتقالية لتقع فيها، فاض بي صبري، فالأب (طنوس) لم يأت، وأمي قرب التنور تخبز لنا فطائر الحميضة وجبنة القريش... لا أدري سر هذه المحبة الوافية التي تكنّها أمي للأب (طنّوس)، أحيانا أراهما وجها واحدا، وجه أنثوي تتقنع به أمي، ووجه ذكوري يتقنع به الأب (طنوس)، أو لكأنهما روح مشطورة إلى شطرين أحدهما تعيش به أمي، والآخر يعيش به الأب (طنوس). كان إن غاب عن بيتنا في الليل والنهار، تضطرب روح أمي، وتضطرب روحي وأسأل عنه، أو تسأل هي عنه..." (حميد، 2021، صفحة 791)؛ فتظهر عاطفة الحب، والمشاعر الدفّاقة من الأب (طنوس) تجاه هدلة التي حملت له

المشاعر نفسها، وهذا يقوي إيماننا بأن الحياة هي التي أرغمته على كبت مشاعره، وأن يصبح أبا راعيا لأحكام الدير، وقوانينه وقائما على أموره. حتى (ماريا) الابنة الوحيدة للأب (طنوس)، القائمة على شؤون الدير كوالدها لم تستطع كبت مشاعرها أو السيطرة عليها، فوقعت في حب عبودة، وأضاءت روحها، وابتهجت عندما أطلقت العنان لمشاعرها.

وعن النذر للكنيسة فهو أمر شاق على النفوس، قرار يتخذه الوالدان لكنهما حقيقة يجنوا على منذورهم، فكم خشي عبودة أن تكون (ماريا) منذورة للدير كما أخبرته أمه هدلة:

" قالت: لكنها أكبر منك، أكبر منك بكثير!

قلت: وهل يهم في الحب يا أمي، أكبر أو أصغر!

قالت: يهم! وعدا عن هذا فهي منذورة للكنيسة!

قلت: منذورة للكنيسة أم تعمل في الكنيسة!

لقد قرأت في سير القديسين أن المنذور للكنيسة يختلف عن العامل في الكنيسة". (حميد، 2021، صفحة 824)

المطلب الأول: حكاية الأضحية

تعرف الأضحية منذ قدم التاريخ، وعلى مر الحضارات والشعوب، وقد " كان يضحى بالإنسان على مذابح زيف الأديان الوضعية والوثنية، فلقد اعتاد أصحاب تلك الديانات الذين كانوا يعبدون النجوم والأشجار، وغير ذلك على تقديم الإنسان كقربان لرضا الآلهة" (قنديل، د.ت، صفحة 4).

وبدأت عند السامريين كما بدأت عند الآريين بالضحايا البشرية، ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحى بأولى ثمرات القطعان، وباكورات الطعام الذي تنتجه الحقول، وكان الاعتقاد السائد في أول الأمر ألا يؤكل لحم الحيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه، وعرض وقتا ما على الآلهة، وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية، ولربما كانت فدية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفي فيها الإله

بأخذ جزء من كل" (ديورانت، د.ت، صفحة 346)؛ فساد حينها الاعتقاد بأن كل ما يقدم لأجل الله يصح أن نقول عنه ذبيحة.

ويسهب حميد في توظيف الرمز الديني لما له من أثر عميق في تعميق الدلالة، والغاية المنشود تحقيقها عند القارئ، والقدسية التي يتمتع بها كرمز وطقس ديني هي التي دفعته على الإصرار على أدائه، إضافة إلى إيمانه برمزيتها عند الأطياف الدينية الثلاثة؛ لذلك ما كان من يعقوب إلا أن يصيح ببناته قائلا: " يا خلق الرب هو الرب! ولا بد من الأضحية" (حميد، 2021، صفحة 60).

فبعد أن اتخذ يعقوب موطنا واستقر فيه، أراد أن يحيطه بالبركات فارتأى أن يقدم أضحية؛ لتغفر خطاياه، ويبارك الرب قدومه، فقال مخاطبا بناته: " ما يبكيني يا بناتي هو أنه لا مناص لي من تقديم دم طاهر لمباركة مكاننا الجديد هذا، وبغير الدم لن يبارك الرب مقامنا" (حميد، 2021، صفحة 58)؛ فحاجج بناته مؤكدا أنه لا فرار من دم طاهر يقدم لهذا المكان، فالموطن الجديد بحاجة لفدية دموية، وتقديم الأضحية كقرابين إحدى الشعائر الدينية اليهودية، " وبحسب الاعتقاد بالنص التوراتي – العهد القديم– في سفر التكوين: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المريّا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" (جريدة اليوم السابع، 2021)، ولا مراء في أن تلكؤ يعقوب في تنفيذ الأضحية، وتباطؤه هو دليل على أن هذه صفة خاصة بهم ترافقهم أينما حلوا.

ويعقوب اليهودي المعروف بمكره، ودهائه، وتحايله على الدين والشريعة، لا بد أن يتفلت من هذا القربان، خاصة بعد رفض جميع بناته أن تكون أحداهن كبش الفداء، فارتأى أن يقدم حماره ليخلص من همّ الأضحية والمباركة، فبدأ بالتحضير لهذا الطقس الدموي، وشرع يجهز المذبح[1] الذي سيتم عليه تقديم الأضحية، فيعقوب " سيذبح الحمار ويقدمه للرب ليبارك المكان، قبل شروق الشمس... رجونه ألا يذبح الحمار الذي ساعدهم كثيرا على قضاء شؤونهم وحاجاتهم، وتساءلن ويعقوب لا يجيب: ما ذنب الحمار

[1] المذبح في المسيحية مائدة من الحجر أو الخشب، توضع في وسط الهيكل، وهي عادة تقليدية، ويرمز بالمذبح إلى وجود السيد المسيح في أثناء ممارسة سر التناول (فيرجستون، 1964، صفحة 102).

ليذبحه؟! وهل دمه طاهر ومبارك؟! وعليه إذا لم يكف عن ذبح الحمار إكراما لماضيه أن يكف عن ذبحه إكراما لمستقبله" (حميد، 2021، صفحة 68)؛ وبفعلته بدا يعقوب مستخفا بالعقيدة المسيحية، وأتباعها الذين يمثل الفداء عندهم قضية أوسع مما يمثله عند غيرهم؛ لأن المسيح افتداهم بنفسه.

والسؤال هنا ما علاقة تضحية يعقوب بالأضحية كرمز مسيحي؟

الباحث في العقيدة المسيحية يدرك أن الأضحية موجودة عندهم منذ القدم، ولكن ليس بالصورة المعهودة عند المسلمين واليهود، وبحسب الرواية المسيحية " لا يؤمن بالأضحية إلا في حالات النذور، وهو ما يمثل الخلاص من ضيقة عدو أو أزمة مالية أو صحية؛ وذلك كون المسيح افتدى خطايا جميع البشر بعد صلبه في الجمعة العظيمة، وخلص البشرية من خطيئة آدم وحواء" (جريدة اليوم السابع، 2021).

اليهود الممثلون بيعقوب يريدون تقديم الأضحية وفق الظروف التي توازي ظروف تقديمها في المسيحية فبالأضحية وتقديم القربان يريد يعقوب الخلاص من الذنوب التي تلاحقه، ومن التشرد والفقر والأزمات المالية التي يعانيها، وقد بعث القديس (بولس) رسالة إلى العبرانيين جاء في مضمونها: "لا مغفرة إلا بسفك الدم") عبر: 22:9)، فالعبرانيّون اتخذوا من الدم وسيلة لتطهير الخطايا؛ " فالدم في اعتقادهم يعطي الحياة، بل هو والحياة شيء واحد" (حميد، 2021، صفحة 141).

وما يثير الدهشة أن بناته، وزوجته كن دوما ثمنا لرفع غمته وضيقته، ويتخذ منهن وسيلة لإرضاء الآخرين؛ أما في هذا الموقف فقد ارتأى أن يقدم القربان، والغريب نوع الأضحية التي اختارها يعقوب الداهية، فقد اختار حماره، وهو على علم بما يشير إليه الحمار في المسيحية؛ لأن " يوسف النجار أتى بالحمار لتركب العذراء عليه، ولكنه يشير للأمم الرازحة تحت حمل خطاياها دون فهم؛ فوجود الحمار إشارة إلى أن الأمم، واليهود مدعوون للخلاص" (فيرجستون، 1964، صفحة 24).

تحايل يعقوب بأضحيته على الرب والأمم، وهذا طبع في بني اليهود، كما أنه يشير إلى رغبته في التخلص ممن ساعدوه فلا تكون يد عليا فوق يده، ويسقط عن كاهله منيتهم، وبذبحه للحمار تخلص من

كل ماضيه الشائن، ولقنهم درسا للمستقبل، فما كان من العجوز إلا أن ترد عليه بأن " الأضحية هي الأضحية يا يعقوب، والرب سيمهلك أياما أخرى، وعليك الآن أن تغمر دم الحمار بالزيت المبارك لا بالتراب" (حميد، 2002، صفحة 85).

ونضيف أن يعقوب بما اقترفه فقد سخر من الأضحية كجزء من العقيدة الدينية في الأديان كلها، وخاصة المسيحية؛ "فالذبائح الحيوانية حسب زعم النصارى لا يمكن أن تكون هي ذاتها الفدية التي قصدها الله لخلاص الإنسان من نتائج الخطيئة (صبري، 2003، الصفحات 17-18)، وسخر من المسيح الذي افتدى البشرية[1]، وأن اليهود يحرصون على أية حياة ولو كانت ذليلة، ومنذ قديم الزمان خدعوا الأنبياء والرسل، فكيف لهم ألا يخدعوا الناس، وهم شعب لا يوثق به، ولا يحفظ العهد، ولا يصون الميثاق، ولهم في ذلك صولات وجولات، وعنهم قال ابن الجريح: " لم يكن في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه، ويعاهدون اليوم، وينقضون غدا" (الطبري، 1994، صفحة 227)؛ فلا مهرب من كونهم أصحاب عقيدة زائفة، ومهما عاثوا تضليلا وزيفا وفسادا يبقى القربان هو القربان حلقة الوصل بين العبد وربه.

المطلب الثاني: حكاية الجدّ، وتعليقه على مسمار خشبي

يسترسل الكاتب بطريقة احتيالية التعبير عن المعاناة الجمعية التي يعيشها أبناء وطنه سواء في داخله أو خارجه منذ نكبة (1948)، المشبعة برائحة القهر والأنين، ويستند على الحكاية المسيحية ليجعل منها أداة للتفريغ عما في داخله، ويتكئ عليها كمادة أولية يبني عليها القارئ رؤى كثيرة، ويعيد توليفها لتنطق بالحال الراهن، فجاء بحكاية الجد، وتعليقه على مسمار خشبي، وجعلها جزءا من الرواية؛ ليعود بنا إلى حادثة صلب المسيح، وظلّ الكاتب يذكر حكاية صلب المسيح في كثير من المواقف، مؤكدا على قضيته باستخدامها شاهدا تاريخيا قبل اعتبارها شاهدا دينيا.

[1] حسب زعم المسيحية: " يسوع المسيح البار هو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضا (رسالة يوحنا الأولى 2\1-2)".

يستعمل الصليب رمزا لصلب المسيح وآلامه، ويقال أن المسيح صلب على صليب من الشكل اللاتيني، والصليب اليوناني ذو أربعة أضلاع متساوية، ويرمز إلى تضحية المسيح من أجل خلاص البشر، وحتى المسامير التي استعملت في صلب المسيح فهي رمز لآلامه (فيرجستون، 1964، صفحة 71،102،104).

ويشير(ويل ديورانت) في سلسلته " قصة الحضارة إلى" أن الصلب أقسى طرق الموت الرومانية؛ حيث إن المحكوم يثبت على الصليب بمسامير في اليدين والرجلين، ويترك على هذه الحالة حتى يموت، وقد كان الجنود يقومون بتقديم الخل للمحكومين، وهو نوع خمر رخيص حتى يسكر المحكوم فيخفف من آلامه (ديورانت، د.ت، صفحة 393)، وهذا يتفق مع الأناجيل الأربعة التي تذكر أنه عندما قدم الخل ليسوع رفض أن يشربه؛ وذلك لأنه أراد أن يتحمل الألم، فوفق العقائد المسيحية، بآلامه رفع يسوع خطايا العالم (د.م، د.ت، الصفحات 109-110).

ومما لا يغيب عنا أنّ حكاية صلب يسوع قامت على مذابح الظلم، والاستبداد، والقهر، والجرح النازف الذي لا يندمل، وأهم ما يمكن استشفافه من هذه الحكاية هو الربط بين يسوع، والأسرى الفلسطينيين في سجون اليهود الصهاينة، والكاتب ألقى عليهم رداء يسوع، فتقمصوا شخصيته، وكانوا كالمسيح متمسكين بالجلادة والصبر، وكما صمد يسوع أمام تعذيب اليهود له ثبت الأسرى الفلسطينيون مثله تماما في زنازين المحتل الغاشم، إلا إن اقتران الأسرى بالمسيح في حادثة الصلب يحدث مساواة، فيسيران كسهمين متوازيين مطلقهما مجرم واحد؛ فأضحى كلاهما رمزا مقدسا يشير إلى الثبات، وينذر بالبؤس الشديد، والفجيعة، ولا سيما أن اليد الصالبة هي نفسها في الحالتين، والمعاني المصلوب (يسوع، الأسرى) مكبلو الأيادي.

على صعيد آخر ترى الباحثة أن يسوع عليه السلام يمثل الصورة المصغرة لفلسطين بمدنها، وقراها، وشوارعها على امتداد مساحتها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وكلها ترضخ قسرا لجبروتهم، وقطعت

أوصالها عن بعضها فلا تستطيع التنقل من مكان لآخر دون المرور بـــالحواجز أو المعـــابر أو نقـــاط التفتيش التي تحيط بها كما أحاطت المسامير بجسد يسوع فتؤلمها، وتكبلها، وتوقعها في قبضة الاحتلال، وشراسته، والذي ما زال يتجاوز كل معايير الإنسانية، والقوانين الدولية، والشاهد على ذلك مـــا نعانيـــه اليوم ونحن في العام (2024)، وما تعانيه غزة الصغيرة مساحة الكبيرة معنى وبعدا وقضية، فأضـــحت يسوعا آخر يصلب من جديد على مقصلة اليهودي المجرم، إلا أنها تبقى حكاية الصمود الخالدة، وتنتظر قيامتها كما ينتظر المسيحيون قيامة يسوع، فالمصلوب أيا كان محاطا بالمسامير، ومكبلا بها ينتظر فجر الحرية والخلاص؛ وبذلك فقد نسج الكاتب معاني جديدة، وعالج قضيته مستندا على الحكايـــة المســـيحية ورمزيتها، جاعلا إياها محملة بالقضية التي تمثل همّ الشعب الفلسطيني، وترمز لوجوده وخلوده.

وقد جاء أن اليهود لم يكتفوا بصلب يسوع، بل أرادوا حرق كل ما يتعلق بـــه، فيقـــول (فلاديميـــر): " يقولون لي أنها المغارة التي أخفوا فيها صليب سيدنا؛ لأن صالبيه أرادوا حرقه من أجل إخفاء جريمتهم؛ لهذا وهنا في هذه المغارة، أخفى التلاميذ الصليب، وإكليل الشوك والحبال، وقطع الجلـــد؛ لأنهـــا أدوات الجريمة؛ كي تظل شاهدا على حقدهم، وخطيئتهم الأزلية" (حميد، 2021، صفحة 455)، وهذه سياستهم منذ الأزل حتى اليوم، فكم من أسير وشهيد ومطارد هدم منزله أو حرق وقضي على كل ما يملكه حتى لا يبقى ما يشهد على وجوده يوما.

وقد سخر يعقوب في روايته: "جسر بنات يعقوب" من حادثة الصلب، فعندما دار حوار بينه وبين ابنتـــه وقد طال، وكثرت أسئلتها، أراد أن يوقفها فقد ضاق صدره، جاء بقصة جده الذي لم يكف عن الأســـئلة، فضاق به الزمان والمكان، إلى أن شكوه إلى ربه، فرماه في السماء الأولى، فالثانية، وصولا إلى السماء السابعة، ورغم محاولات ملك السماء ترقيق قلب الرب عليه إلا أنه لم ينجح، فيقول:" لم يستجب الـــرب لكلمات ملك السماء السابعة الرقيقة، وأمر في التو والحال تعليق الجد على مسمار خشـــبي راح يتغـــذى يوما بعد يوم من جسد الجد الذي يسارع إلى ترميم الثغرات التي يحدثها المسمار. وصـــمت يعقـــوب، فشهقت ابنته، وكفت عن الأسئلة" (حميد، 2021، صفحة 83)، فاستعار بدهائه الرمز المســـيحي خالقـــا

منه مغزى لقصة جده، لكنه تحايل عندما قال: " إن جسد الجدّ يسارع إلى ترميم الثغرات التي يحدثها المسمار"؛ وهو بذلك يعرض صفات تاريخية متجذرة في اليهود لا يتخلون عنها، ولها تاريخ أسود في حياتهم، وهي التحايل، والمكر، والدهاء، فأراد يعقوب أن يظهر قداسة الجسد اليهودي، وسموّه فوق أيّ جسد آخر، حتى لو كان المسيح يسوع بعينه.

من هذه الحكاية يعيدنا حسن حميد إلى الصراع الدامي والطويل بين اليهود والمسيحيين، لكن حقيقة وضع هذه العلاقة تغير، وسار باتجاه آخر خاصة في فترة (مارتن لوثر) وكتابه "المسيح ولد يهوديا"، فأخذ التوتر بينهم يهدأ، ونشأت مساحة صداقة لا بأس بها، ثم أخذت بالاتساع، ونشأت حركة التنوير (الهسكالاه) مشجعة إياهم على الخروج من (الجيتو)، والاندماج في العالم الغربي المحيط بهم.

ومهد الغرب لليهود سبل دخولهم إلى فلسطين، وبسبب التقارب القوي بينهم عملوا جاهدين على تقوية الوجود اليهودي في فلسطين خاصة، والمنطقة العربية عامة، ولكن ذلك كله لم يكن حبا في اليهود، وإنما خدمة للدول المساندة لهم، وفرضا لوجودها وهيمنتها باستخدامهم أداة تعزز سيطرتهم لا أكثر، وتحقق مآربهم.

وبإدراج الكاتب لحكاية جد يعقوب، وتعليقه على المسمار الخشبي قصد توعية المسيحيين، وتذكيرهم بحقيقة اليهود، وردعهم عن الاستمرار في نصرتهم ومساندتهم لهم، وإمدادهم بالأموال والأسلحة والعتاد، وتذكيرهم أنّ من صفة اليهود احتقار الآخر، وأنهم على استعداد لمعاداة الآخرين والغدر بهم ما دامت مصلحتهم تقتضي ذلك، فلا يؤمن لهم جانب.

المطلب الثالث: حكاية النهر المقدس

تواصل الحكاية فرض وجودها في الروايات المنتخبة، ويأتي بالنهر المقدّس؛ ليعرض حكاية تاريخ لا يمكن التغافل عنه، فعن أي نهر يتحدث، وما السبب وراء إسقاط صفة القداسة عليه؟ قصد حسن حميد من النهر المقدس نهر الأردن، المتعارف عليه عند الفلسطينيين والأردنيين بنهر الشريعة، وهو " أحد

أهم الأنهار العربية المشتركة في منطقة الشرق الأوسط، يبلغ طوله حوالي (251) كم، وطـــول ســـهله حوالي (360) كم. ويتكون عند التقاء ثلاثة روافد هي نهر بانياس القادم من سوريا، ونهر الدّان القـــادم من شمالي فلسطين، ونهر الحاصباني القادم من لبنان، والتي تشكل مجتمعة نهر الأردن العلوي"[1].

ويمثل نهر الشريعة نقطة مفصلية، وجوهرية عند الفلسطينيين، ليس لموقعه الجغرافي وأهميته كمصدر مائي رئيس، وإنما لما يتمتع به من مكانة دينية، وما طرأ عليه من تحولات فأمسى يمثل قضية سياسية، وتتبع قدسية نهر الأردن من نزول يسوع المسيحي مياهه؛ ليتعمد من يوحنا المعمـــدان[2]، وكـــان ذلـــك صورة لقبوله حكم الموت الذي كنا نستحقه نحن بسبب خطايانا، فقبل المسيح أن ينزل إلى نهر الأردن، ثمّ بعد ذلك ذهب ليموت باختياره على الصليب؛ وذلك كي يخلصنا مـــن المـــوت الأبـــدي (عبـــرانيين، 2/14-15).

وجميع قصص تعميد يسوع تذكر نهر الأردن، ففي إنجيل(يوحنا): " تم ذكر موقعين فـــي نهـــر الأردن تواجد فيهما المسيح والمعمدان؛ من أجل التبشير والمعمودية، أولا: بيت عنيا (بيثني) عبر النهر (يوحنا، 1:28)، والثاني: آنون قرب ساليم الواقعة على الضفة الغربية من النهر قرب أراضي بيسان (يوحنـــا، 3:22,23).

وعندما كان المعمدان في بيت عنيا أرسل له زعماء اليهود وفدا من القدس؛ ليسألوه إذا كان المســـيح أو إيلياء النبي الموعود، وقد كان هذا الوقت الذي تحدث فيه يوحنا عن المسيح كحمل الله أمـــام الجمهـــور وتلاميذه (يوحنا 1)، لذا بحكم تعميد المسيح فيه غدا مكانا مقدسا، وذكر في الكتب المقدسة، كما ســـعى الحجاج المسيحيون بالقدوم إليه؛ لممارسة طقوس دينية، وعيش تجربة روحانية فريدة.

[1] نهر الأردن... عطاء الجغرافيا والتاريخ الحضاري المجيد، جريدة الدستور الأردنية، مؤرشف من الأصل 2021-2-6.

[2] تحدثنا عن ذلك في الفصل الأول.

ومن قراءات الباحثة لحكايات النهر المقدس في الروايات المنتخبة فإن توظيفه حمّل النص معاني كثيرة مملوءة بذكريات دينية، لكنها ممزوجة بسيل دموع لا يتوقف، وقهر لا يضمحل، وهذا الشعور عائد إلى أن النهر شاهد على عذابات الفلسطينيين، ونكبتهم، ويحمل خلفه ضفة مغمورة بالألم، فمن خلاله هجر أبناء فلسطين إلى الأردن وسوريا ولبنان والعراق وغيرها في نكبة (1948) وما بعدها، ويشهد على فجيعتهم حفيف القصب المحيط في النهر، فيقول في " مدينة الله": " لم يكن من رفيق في رحلتهم المعتمة سوى حفيف القصب الذي أحاط بالنهر... وحين تخطوا الجسر، وأصبحوا في الطرف الشرقي صار الحفيف أنينا لقصب يبكي" (حميد، 2021، صفحة 253).

وتبقى صورة الجسر في ذاكرة عابريه بحرا كبيرا من الآلام على حدوده، وطللا يطل على الوطن من جهة، ومن جهة أخرى تطل على مصيبة الوطن، وتغريبته، فبات دالا على الكراهية، وهول معاناة الشعب الفلسطيني، ومما يعبر عن هذه المأساة، ما جاء في رواية "أنين القصب": " أرواح حائرة، تائهة، تحط في محيط البلاد، لا شيء يصدر عنها سوى البكاء، و التآسي، ولا شيء يفصل بين المكان الذي نحن فيه الآن وأرضنا سوى النهر، لم نتمكن من السكن إلى جوار النهر تماما؛ لذلك سكنّا في قرية نعران القريبة من قرية جليبية المحاذية للنهر مباشرة... من ضفة النهر الشرقية، ومن فوق المرتفع المطل على الشماصنة، كنت أرى جسر بنات يعقوب... وتبدو الشماصنة، بيوتها واضحة، والطريق إليها واضحة... لعلها تنتظر إيابنا الذي طال" (حميد، 2021، صفحة 372)' فانتهى الحديث عن المعاناة بحلم العودة، الساكن يحلم بالعودة إلى وطنه، والوطن يحن لساكنه، وليس أيّ حلم كالتحرير والعودة، وعبورهم منه عائدين إلى مدنهم وقراهم وأراضيهم وبيوتهم التي غادروها مهجرين مشردين بين ليلة وضحاها منذ ما يزيد عن (75) عاما.

وتأتي حكايات النهر بشكل متناثر، فلا ننتهي من واحدة حتى نقع في الأخرى، وترد كل منها مصاحبة لإيماءات ودلالات؛ ففي رواية " جسر بنات يعقوب" جعل النهر المقدس مكانا مغايرا لمعناه وصفاته؛ بفعل قباحة تصرفات بنات يعقوب، ونجاستهن، فجاء في الرواية: " ولم تدر كيف حملها رحمون،

وركض بها نحو النهر، وصوتها يتعالى برنة من الخوف الجميل، غطّها بالماء الصافي، الأزرق الملون، البارد تماما فعلا صراخها الأنثوي البهيج، ورماها في النهر، فصرخت أكثر، واندفع نحوها، وأخذها إليه، وأخرجها مبتلة تماما" (حميد، 2021، صفحة 77).

وفي موضع آخر من الرواية: " وركع تحت شجرة التوت فوق مشرف العشب الطري، وصلّى صلاة طويلة للرب الذي أعاد إليه غزالة... فجأة وحين توارت الأختان عنه كان لا يزال ماضيا في صلاته الطويلة، ولم ينته من صلاته إلا عندما رأى المخلوق الأنثوي الجميل، عاد إليه بزي آخر، وجمال آخر، وبهيئة أخرى، فقام من صلاته، أنثاه بين ذراعيه وتقدم بها نحو النهر" (حميد، 2021، صفحة 132)؛ فكان النهر شاهدا، وضاما لأفعال رحمون الدنيئة مع بنات يعقوب واحدة تلو الأخرى، وكان النهر عند بنات يعقوب ملجأ لممارسة الرذيلة، فدنسن النهر بقبح فواحش أعمالهن، وكيف لنهر قدس بيسوع أن يضم كل تلك الخطايا؟!

ثمّ إن يعقوب عمل جاهدا ليقع كل شيء في قبضته، فيقول الراوي: " اقتربوا من الجسر، وشرعوا يحفرون حفرة واسعة جدا؛ من أجل إقامة دعامة كبيرة ثابتة من الحجارة؛ لكي يستند إليها طرف الجسر الشرقي بحيث يصير ثابتا من طرفه الغربي، ومتحركا من طرفه الشرقي، وأن يربط هذا الطرف الشرقي بحبل، ويعلق بالهواء بحيث لا يمر فوقه إلا من يدفع أو من يرضى عنه يعقوب" (حميد، 2021، صفحة 305).

وحقيقة تمكن يعقوب من فرض سيطرته على الجسر الذي بجانب النهر إشارة لتمكن اليهود من إقامة (جسر اللنبي) الذي يربط الأردن وفلسطين؛ وبذلك حققوا غاية من غاياتهم، ثمّ إنّ إقامة الجسر تعني عرقلة حركة الفلسطينيين، والحد من إمكانية تنقلهم بين الضفتين الشرقية والغربية؛ بسبب التعرض للمساءلة من قبل المتحكمين به، فمن عليه نقاط أمنية، ولا ترضى عنه إسرائيل يمنع من الدخول والخروج.

كما أن إقامة الجسر على النهر فيه إذلال للفلسطينيين، وتجبّر بهم، ووسيلة لجباية المزيد من الأمـــوال، فالجسر سيصبح كنز مال لا يفنى، كما يقول الراوي: " الجسر سيصبح بوجود بنـــات يعقـــوب البقـــرة الحلوب التي لن يستغني عنها يعقوب أبدا" (حميد، 2021، صفحة 374)' فيعقوب سيسلك كـــل الطـــرق مهما كانت قذارتها مقابل الحصول على المزيد من السلطة والأموال، وإن كانت بناته وســـيلة لتحقيـــق مآربه.

ثم تجلت المأساة في تحويل النهر المقدس إلى مدنس بعد قدوم اليهودي يعقوب وبناته، واستيطانهم فيـــه، ومساعدة الدول العظمى لهم، مستخدمين كلّ أشكال الزيف والكذب والخداع، ونضيف تبريـــك يعقـــوب المكان بالأضحية المزيفة (الحمار) التي سفك دمها وقدمها، مستهترا، ومتناسيا قدسية النهـــر، وغاضـــا البصر عن البعد الديني الذي يتمتع به المكان.

انتقالا إلى رواية " مدينة الله"، ومن خلال زيارة (فلاديمير) برفقة الحوذي (جو) إلى بيت لحم، والحكاية الجميلة التي علقت بذهنه عن هذه المدينة، وتجوله في أسواقها، وبين دكاكينها، ومشاهدته أواني الفخـــار المشهورة فيها، وحول ذلك يقول: " وتلك أواني الفخار نضع فيها الصلبان؛ كي ترتـــوي بمـــاء النهـــر المقدس، اقتربوا؛ كي تروها، فنقترب، إنها قدور فخارية كبيرة وصغيرة مـــلأى بالصـــلبان المغمـــورة بالماء" (حميد، 2021، صفحة 447)' وهنا يقدم أمرا آخر يشير به إلى قدسية ميـــاه النهـــر؛ فالصـــلبان المستعملة في التعميد، والطقوس الدينية الأخرى لا بدّ أن تنقع بماء النهر المقدس؛ مما جعـــل النهـــر " دلالة ارتواء روحي؛ فماؤه يحمل مدلول الطهارة والصفاء؛ لأنه الخير والخلود والديمومة" (العميـــري، 2012).

ويعاود حسن حميد الحديث عن تعاظم بطش يعقوب، وفساده، وتكبره الذي يواجهـــه أصـــحاب الأرض بنضالهم، وعدم سكوتهم على أفعاله، فيأتي النصر، ويعود الجسر إلى ما كان عليه قبل مجيء يعقـــوب، فيموت يعقوب بإغراقه في النهر الذي لوثه؛ ليتطهر المكان من دنسه، ويعود للنهر قداسته و رمزيتـــه،

يقول الراوي: " عاد الأهالي وثبتوا طرف الجسر الشرقي فوق الدعامة الكبيرة، وهدموا بيت عصـــمان، وأعادوا الجسر إلى ما كان عليه قبل مجيء يعقوب وبناته" (حميد، 2021، صفحة 331)[1] فينتهي الأمر بعودة الحق لأصحابه الشرعيين مهما طال الوقت، ويكون تطهير النهر رمزا لحتمية النهاية التي وعـــد بها رب يسوع.

من خلال هذا العرض ندرك أن الكاتب وإن لم يكن قاصدا أقام موازنة مهمة عكست صورة النهر قبـــل مجيء يعقوب القائمة على المحبة والطهر، وصورته بعد مجيئه، وكيف جعله رمزا للتهجيـــر والقهـــر والقلق والخوف والغربة والخيبة والفجيعة والخطيئة والمعصية، إضافة إلى تبنيه النهر باعتباره رمـــزا سياسيا دالا على الاضطهاد، ومن خلاله استطاع إنتاج حكاية، وتشكيل صورة حقيقية لما يجري، ونقلها بطريقة مغايرة عن الصورة الاعتيادية.

المطلب الرابع: حكاية حنا... المحرم المر

أظهرت حكاية " المحرم المر" فكرة أساسية تبنتها المسيحية، توطّد دعامة البتولية، وتهيـــىء الطريـــق للمؤمنين من أجل كبح الشهوات، وتجنب اللذات، وعرقلة كلّ ما يوقع في الخطيئة؛ وتعكس حكاية (حنا) خوف المسيحيين المؤمنين من الإخلال بهذه الفضيلة، والوقوع في شباك الرغبات والغرائز.

يسرد الراوي الحكاية قائلا: " لكن العجوزين وفي ذات صباح مبكـــر، اســـتيقظا وهمـــا ممـــددان فـــي فراشهما، على بكاء طفل صغير هو ابن يوم أو يومين. يبكي بصوت عال ومتواصل قربهما في صباح باكر شاسع الهدأة والضياء. فتبادلا النظرات، وحالة من الهلع والخوف تلفهما، وتساءلا بجزع من أيـــن جاء الطفل، وكيف؟! ومن حمله إليهما؟! ولماذا اختيرا هما ليكونا أبوين له؟!... كانـــت فرحـــة المـــرأة العجوز لا تصدق، وكان رجلها العجوز منذهلا، يسألها بإلحاح ويهزها بفرح:

أهو... لك

ولا تجيب المرأة العجوز، بل ترفع لحافها المبلول..." (حميد، 2021، الصفحات 22-23).

هاب العجوزان، وخاصة العجوز، وخشيا أن يقعا في الشرك، إلا أن مشاعر الأمومة المرجـــاة طغـــت على المشاعر السلبية التي أصابتهما، ويتفق هذا الشعور مع أثر الرواقية[1] على المسيحية، الذي يظهـــر في القول " بأن حياة الفضلة هي حياة التأمل، والتأني، والانسجام مع النفس، وتجنب اللذة في طريق كبح جماح الرغبات غير الطبيعية، وغير الضرورية، وعراقة الخطيئة؛ كونها من مفاهيم الجوهر والمـــنهج في الأخلاق الرواقية، والأخلاق المسيحية" (الكيلاني، 2009، صفحة 231).

فمثلت الحكاية دعوة المسيحية، ورؤيتها بهذه القضية، وبين الكاتب من " حنا– المحرم المرّ" لجم الشهوة والنزوة من أن تظهر بسبب العقيدة، والتفريق ما بين الحلال والحرام، والمسموح والممنوع.

المطلب الخامس: حكاية اقتحام البرق المغارة

ينهض النص من خلال حكاية جديدة ولدت من تداعيات أصداء يسوع المسيح، وجعلت نهايـــة الحكايـــة قائمة على التحول من حالة لأخرى، وقضت على العداوة القائمة بين المتضادات بانتصار إحداها علـــى الأخرى.

وتظهر تفاصيل الحكاية في حديث (فلاديمير) مع الحوذي (جو) في طريقهم إلى أريحا، وأثناء مرورهم عن مغارة عجيبة أثارت فضول (فلاديمير)، فحدثه الحوذي عن حكايتها بكل تفاصيلها، ومما جاء فـــي حديثهم: "هنا إلى الجوار، قرب المغارة مصطبة شبيهة بالثلج، وثمّة ظلال تبديها الأضـــواء لأشـــخاص جالسين، أقول له: أين هم؟ فيبتسم وهو يهمهم: كانوا هنا، ومضوا... قلت له: ومن هـــم؟ قـــال: ســـيدنا ورفقته. قلت: كانوا هنا! قال: كانوا هنا. قلت: والضوء؟ وهذا الزجاج؟ قال: بينما كانوا جلوسا يحتمون من المطر أبرقت الدنيا، فاقتحم البرق المغارة، فرفع سيدنا كفه في الهواء؛ كي يتأدب البرق، فـــأرجف وتوقف فملأ المكان بالضوء... لهذا ترى المغارة على هذا النحـــو صـــخورها كالزجـــاج، وحيطانهـــا

[1] الرواقية: مذهب فلسفي، وليست فلسفة فحسب، وإنما هي قبل كل شيء أخلاق ودين، ويحق القول إن الإنسانية عاشت على الرواقيـــة حتى أدركت المسيحية، ولمّا استقرت المسيحية وانتظمت عقائد ومذاهب جديدة اقتبست من الفلسفة الرواقية مـــا يلائـــم روح تعاليمهـــا. (أمين، 1945، الصفحات 7–9).

وأرضيتها كالزجاج، وصور من كانوا فيها مرسومة بالضوء على الزجاج، قلت: هذه أيقونة. قال: هــذه أعجوبة..." (حميد، 2021، صفحة 498).

فدائما ما يبدأ النور بالسطوع من اقتحام أمر ما لظلمة المكان، فأصبحت المغارة بعد اقتحام البرق لهــا صورة بانورامية، وما زاد الاقتحام جلالا حضور المسيح الذي أكسبها حضورا خاصا، فانشق من وسط العتمة الضوء والضياء، والعتمة لم تكن عتمة المغارة فحسب، وإنما عتمة داخلية التي كانــت تعانيهــا النفوس قبل مجيء يسوع، وحالة التيه التي خضعت لها جموع البشر قبل قدومه، خاصة أن اليهود قاموا بتحريف التوراة، واللعب فيها، وتضييعها، فكأنما الغارقون في تيههم، وضلالهم استيقظوا عندما ســطع نور المسيح " فهذه الحيطان فجوات، ونوافذ، وأقواس صخرية شفيفة ملأها الضوء بالحضور، إنها مرايا زجاج، نكاد نرى أنفسنا فيها بكل الوضوح والتجلي" (حميد، 2021، صفحة 490).

إن الانتقال من مرحلة العتمة التي تمثل الضياع، والتشتت بسبب عدم وجود دين حقيقي غير مزيف إلى مرحلة النور المتمثلة بقدوم المسيح، ووجوده في المغارة، ومن خلال صورة المغارة بعد اقتحام البــرق بيّن كيف كانت العتمة مكبلة ومقيدة، وكيف أصبح النور وهّاجا سائدا، طويل الأمد باقي الأثر، أضــف إلى أنّ ثنائية العتمة، والنور تجسدان بعدا يقرن الكمال بالنور، والفناء بالعتمة، ولا شيء يمنح قيمــة إلا إذا تسلح بالنور.

وثمّة أمر آخر يرادف النور والعتمة هو الخير والشرّ، فقدوم المسيح يمثل قدوم الخير، فانقشع الشر من حياتنا، ولم يعد له مكان بيننا، فكان يسوع شعاع خير أنقذ العالم من عتمة الدنيا وضياعها، والوصــول إلى هذه النتيجة يقودنا إلى التفكر في الحياة والدين، والتدبر بهما؛ ليتحرر العقل من جموده.

ولم تقف الباحثة عند ما سبق بل ترى أنّ العتمة والظلام تعبير عن اليأس والخيبــة والكآبــة والتشــاؤم والشقاء والفقد والسوداوية والوحدة والاغتراب، وجميع المشاعر السلبية التي يعيشــها الكاتــب، ومــن يقدسون قضيته، والنور هو الحرية التي ستشرق بعد ذلك الظلام.

كما أن توظيف اقتحام البرق للمغارة اختيار ذكي، يدلّ على كسب الرهان مع الحياة، إذا اهتدينا لنورها المتمثل في الإيمان، ويعدّ تعبيرا عن صراع كوني لمتضادات قائمة منذ الأزل، وباقية ما بقيت الحياة، وجعلت هذه الحادثة ذكرى تسكن المكان والزمان، وليس زمن وقوعها فقط.

المطلب السادس: حكاية شجرة العشرة

أخبر الحوذي (جو) رفيقه في الرحلة عن كل مكان يمر منه، وعرض له تفاصيل أبسط ما يمرون به، ساردا حكايته، ومعللا خصوصيته؛ ففي أثناء سيرهم في طريق الآلام مرّا بشجرة آثر الحوذي (جو) الحديث عنها، وعاد بنا من خلالها إلى تلاميذ يسوع الذين رافقوه في دعوته، تاركين كل شيء خلفهم، سائرين على خطاه، لكنه تعرض للخيانة من أحدهم، وهو يهوذا الإسخريوطي الذي سلّم يسوع لليهود، فكانت هذه الشجرة المكان الذي اجتمع تحت ظله التلاميذ العشرة حين علموا بفعلة يهوذا، يقول الحوذي "هذه الشجرة تسمى شجرة العشرة؛ نسبة إلى تلاميذ سيدنا، وقد كان اجتماعهم هنا، حين علموا بأن يهوذا باع سيدهم، وقد تمهل سيدنا هنا ثم تعثر فركع" (حميد، 2021، صفحة 451).

سرد الكاتب من هذه الحكاية القصيرة سردا عرض فيه قضية الخيانة، التي كانت أكثر ما أوجع السيد المسيح، وفي الوقت ذاته أكثر ما توجع الثوار، والمحبين للوطن، والمخلصين له، فيسوع النبي خانه تلميذه الذي سبق أن بايعه، وكذلك المناضلون يتعرضون للخيانة من أحد المنتمين إلى جماعاتهم، فكثيرا ما ينتمي بعض الأشخاص ضعاف النفوس، والإيمان إلى الأحزاب النضالية، فيصل إليهم اليهود، ويجندونهم لصالحهم كما توصلوا إلى يهوذا الإسخريوطي، فيغرونهم بالمال مقابل تنفيذ أوامرهم.

كما تعكس الخيانة التي تعرض لها يسوع ما تعرضت له فلسطين من خيانة وخذلان، فقد تخلى عنها الجميع، وخانها الأخ والصديق قبل العدو والغريب؛ وبذلك لم يترك الكاتب خيطا يسلط من خلاله الضوء على شيء يتعلق بقضيته إلا استخدمه.

المطلب السابع: حكاية الكنيسة التي تحولت إلى مسجد ثم إلى مطعم

تظل رؤية حسن حميد، وجدله مع قضيته، وواقعه محركا للحديث عن الوطن الذي يتسع للجميع مهما اختلفت الديانات، ويحضر في هذه الحكاية جرح آخر لا يندمل، يوجع في الصميم، يتمثل بالتهويد، وطمس المعالم، فهو نهج اليهود وأسلوبهم، فلم يتركوا كنيسة، ولا مسجدا استطاعوا أن يهوّدوه إلا فعلوا[1]، وهذه غايتهم؛ حتى لا يبقى وجود لديانة غير اليهودية.

وفيما يخص تلك الحكاية يخبرنا الحوذي (جو) حقيقة ما حصل، خلال زيارته لهذا المكان برفقة (فلاديمير)، فيقول (فلاديمير) عنه: " يسألني: كيف رأيت المكان؟ فأقول له: جميل، ولكن كأنه لم يصمم ليكون مطعما. قال: صحيح، لم يكن كذلك. قلت: وماذا كان؟ قال بأسى: كنيسة! قلت: كنيسة؟ وكيف تحولت إلى مطعم؟ قال: تحولت بعد عام (1948)، فالكثير من الكنائس والمساجد عرضت للبيع في مناقصات عامة، وقد تم بيعها فعلا. قلت: اشتراها اليهود؟ فقالت (سيلفيا): التي اشتراها اليهود تحولت إلى منشآت سياحية وغير سياحية. قلت: غير سياحية كيف؟ قالت: بعض اليهود اشتروا الكنائس والمساجد، وحولوها إصطبلات للخيول والبغالة والماشية. قلت: عجيب، من أمكنة عبادة إلى أمكنة منامة، وعلف للحيوانات" (حميد، 2021، صفحة 566).

وسبق أن أشار لهذه الحادثة إبراهيم سلامة الخوري، في كتابه " الدليل السياحي لأهم الأماكن الدينية، والأثرية في الأرض المقدسة" فقال: يوجد للحرم مدخلان أحدهما شمالي والآخر جنوبي، ولكل منهما درج للصعود إليه بحيث يلتقيان داخل مسجد الجاوليّة، ومنه ندخل إلى الحرم الإبراهيمي فنشاهد المسجد، وقد أقيم في الجهة الجنوبية طوله من الغرب إلى الشرق (28) مترا، ومن الجنوب إلى الشمال

[1] هناك العديد من الأماكن الدينية التي قام اليهود بتهويدها، وحولوها إلى مقاصد أخرى، ومنها:

- مقام سمعان شمال غرب قلقيلية حوّل إلى قبر يهودي باسم شمعون.
- مقام الست سكينة في طبريا محول إلى قبر يهودية باسم راحل، وتحول إلى كنيس للصلاة لليهود.
- مسجد الخالصة (كريات شمونة) حوّل إلى متحف بلدي.
- مسجد عين حوض قضاء حيفا محول إلى مطعم وخمارة، وغيرها الكثير.

(21) مترا. أصله كنيسة بيزنطية يدل على ذلك كتابة يونانية ظاهرة في زاوية الرواق الشمالي منه، حوّله الصليبيون أيضا إلى كنيسة، وأخذه بعدهم سنة (1187) المسلمون وأعادوه مسجدا" (خوري، 1997، صفحة 101).

وقد عرفنا في التاريخ أن صلاح الدين الأيوبي منح أهل إيلياء السلام، وحظيت جميع كنائس فلسطين بالأمان، وأخذ المسلمون على أنفسهم عدم التعرض للكنائس أو المساس بها؛ فالعهدة العمرية ساعدت المسيحيين على الاندماج بسرعة في المجتمع الجديد الذي حولهم، ولكن عندما جاء اليهود تغير كل شيء، فلا عهد عندهم يدوم، ولا وفاء باق، ولا حرمة للأماكن، وحتى اليوم ما زالوا يكيدون المكائد والدسائس، ويحاولون بما يملكون من قوة فرض سيطرتهم على الكنائس إلى جانب المقدسات الإسلامية والتضييق عليهم. وفيما يخص هذا الحكاية فاليهود منذ احتلالهم للضفة الغربية، يعتدون بشكل متكرر على الحرم الإبراهيمي، ويمنعون المصلين من دخوله إلا في أوقات محددة هم من يضعونها، وكخطوة أولى لتهويده تمّ اقتطاع جزء منه، ومنحه للمستوطنين؛ للصلاة فيه لحين إكمال سيطرتهم عليه.

ذكر هذه الحكاية في الرواية يدل على وعي الكاتب بضرورة الحديث عن أماكن مقدسة أخفى اليهود ما يدل على وجودها، وغيروا هيئتها، لكنه تمكن بوعيه، وإدراكه أهمية الحفاظ عليها تضمينها في روايته، في محاولة لتحدي سياستهم التي تعمل جاهدة لطمس المعالم، ولا سيما أن طمسها هو طمس للهوية، وإبادة لها، وتغيير حقيقتها يعد فرضا لواقع جديد، وهوية جديدة، إلا أن تضمينها في الأدب يبعثها من جديد، ويحافظ عليها حيّة شاهدة على حقيقة التاريخ، وعلى المخططات الخبيثة التي سرقتها، وتسعى لسرقة غيرها، وتضعها ضمن دائرة الاستهداف الاستيطاني.

ويستمر حوار الشخصيات الممزوج بالحكايات، هكذا كان اللقاء في المطعم بين رفاق السفر (فلاديمير) و(سيلفا)، والحوذي (جو)؛ فبعد أن أخبرهم الحوذي عن حكاية المطعم، وتحوله من معلم لآخر، تدخلت (سيلفا) بعدما شعرت أن رفيقها استاء من ممارسات اليهود البغيضة بحق الأماكن الدينية ودور العبادة،

فردت عليه: " لم نخترع شيئا جديدا، هذه الأمكنة نفسها تحولت إلى إصطبلات أيام احتلالكم لبلادنا في الحروب الصليبية. ولنا الفضل، وبعد أن حاربناكم وانتصرنا عليكم أعدناها لتكون أمكنة للعبادة... قلت متعجبا: أنتم حاربتم الصليبين الفرنجة وانتصرتم عليهم... وأين؟ قالت: حرب الاستقلال الأولى التي خضناها كانت في معركة حطين حين حاربنا مع القائد صلاح الدين الأيوبي... ذلك الانتصار نحن أهله وأصحابه... التاريخ لا يقول هذا. قالت: تاريخنا يقول هذا. قلت: تاريخكم، ولم أنتظر الإجابة، فأضفت والآن، لماذا حولتم دور العبادة هذه إلى مطاعم واصطبلات... قالت: لأنها كثيرة، فالمسلمون والمسيحيون كانوا كثرا هنا لكن بعد خروجهم إلى بلاد وأمكنة أخرى، باتوا قلة... وأصبحت الكنائس والمساجد فارغة..." (حميد، 2021، صفحة 567).

حكاية (سيلفا) المكذوبة تشعرنا جميعا بالأسى الذي شعر به (فلاديمير) حينها، وجاء الرد عليها في رواية أخرى (أنين القصب): "أحسست، ومنذ اليوم الأول لخروجي من الشماصنة، أن خيط الحياة انقطع، أو قل إن خيط السعادة انقطع؛ فالروح تدور في حزنها مثل الجاروشة. أموت في النهار ألف ميتة، وأنا أرى أرضي تفلح، وتزرع، وتسرق غلالها" (حميد، 2021، صفحة 567)؛ مما يؤكد أن خروجهم لم يكن طواعية، وإلا فلم الحزن والانكسار، فالقول الذي أدلت به (سيلفا) يعكس الجهد الكبير المبذول، والأموال الطائلة المدفوعة؛ لترسيخ التاريخ المكذوب المعدّ، والمكتوب بأيدي صهيونية لتجادل، وتناقش دون خجل أو مهابة، مما يعكس وجود قلق كبير تجاه التزييف، وسلسلة الأكاذيب الصهيونية غير المنتهية منذ فرضها علينا حتى اليوم.

ونتيجة لإدراك اليهود أهمية الهوية، والتاريخ في سيرتهم دفعهم إلى تزييف التاريخ وتضليله، وعمدوا إلى اختلاق الأكاذيب التي تجعل حقهم في أرضنا شرعيا، وعملوا على محو التاريخ الفلسطيني بأكمله، خاصة " أنّ التاريخ في الفكر الصهيوني من ركائز الدولة؛ فهم يعلمون أن صناعة الصهيوني تبدأ من التاريخ" (الوغليسي، 2015، صفحة 34)؛ فلجؤوا إلى الكتاب، والباحثين؛ لتحقيق هذه الغاية، مما جعل دراساتهم تتبوأ مكانة مهمة في وجود الصهيونية، وتقويتها.

والأكثر إيلاما تصديقهم لتاريخهم المكذوب، و(سيلفا) واحدة منهم فردها على (فلاديمير) عندما سألها أين حاربتم الصليبيين، وانتصرتم عليهم كان: "حرب الاستقلال الأولى التي خضناها كانت في معركة حطين حين حاربنا مع القائد صلاح الدين الأيوبي... ذلك الانتصار نحن أهله وأصحابه "، فبكل جرأة جعلوا أنفسهم شركاء في الانتصار، وزادت كذبها تأكيدا بقولها: " المسلمون والمسيحيون كانوا كثرا هنا، ولكن بعد خروجهم إلى بلاد وأمكنة أخرى باتوا قلة... وأصبحت الكنائس والمساجد فارغة" (حميد، 2021، صفحة 567)[1] فحكايتها المختلقة توحي بأنهم خرجوا من بلادهم برغبتهم واختيارهم، وليس قسرا وكرها بعد قتل وتشريد وحرق وتدمير وسلسلة من حروب تمثلت في النكبة والنكسة وغيرها من الاعتداءات المتلاحقة.

وما زعمته (سيلفا) ليس ببعيد عنهم؛ فتزييف الحقيقة بدأ عندما ادّعوا أنّ "رسالتهم تاريخية، مفادها العودة إلى أرض خالية، وصحار قاحلة، ووصفوا هذه الأرض بأنها تنتظر وصول التكنولوجيا الغربية حتى تصبح قابلة للسكن، وتم تصوير الحركة الصهيونية بأنها جزء لا يتجزأ من العالم المتحضر" (كيث، 1999، صفحة 48). وفي رد (سيلفا) ومضة مهمة، تشير إلى أمرين؛ الأول: اهتمام اليهود بالحروب الصليبية، والنظر إليها كنقطة جوهرية في تاريخهم. والثاني: هذا الاهتمام لم يكن هباء، وليس من فراغ، وإنما عكفوا على دراستها حتى لا يقعوا في ذات الأخطاء، ويتجنبوا سحقهم كما سحق الصليبيون في معركة حطين، وليحضروا أنفسهم؛ ليكونوا قادرين على تشتيت الأمة العربية والإسلامية، وتفتيت روابطها خشية أن تتوحد كما فعلت بعد معركة حطين.

ولا شك أن الحروب الصليبية لم تنته بعد، وما زالت موجودة حتى اللحظة، لكنها بصيغة مختلفة، وصورة مغايرة تتمثل في الدولة المزعومة " إسرائيل"؛ بمعنى أن الدول الغربية الاستعمارية عندما أنهت الحروب الصليبية أنهتها شكلا لا واقعا، فزرعت "إسرائيل" في المنطقة، ودعمتها بإنشاء فكرة القومية اليهودية، وأرض الميعاد، وما زالت منذ تلك الساعة حتى الآن تحركها كيفما تشاء، وبما يلبي مطامع حملتها.

وبمقارنة الحروب الصليبية مع الصهيونية يظهر تشابه كبير بينهما؛ فالبلد المقصود واحد وهو فلسطين، والمحرك في الحالتين الغرب (المسيحيون الذين قادوا الحروب الصليبية)، والحجة واحدة؛ ففي الحروب الصليبية كان من منطلقاتها هدف ديني، وكذلك الحال مع الاحتلال الصهيوني؛ لذا أقنعوا أنفسهم بأن فلسطين أرض الميعاد، ولا بدّ من العودة إليها، والفكرتان تقومان على الاستيطانية وسرقة الأرض، والمطلع على كتابات الكاتب الإسرائيلي (عاموس عوز) سيلحظ أنه اقترح عليهم عبارة "كنعانيون، وأيضا صليبيون"، وبالطبع فإن في الأولى تزييفا، وفي الثانية حقيقة، والشاهد اليوم حرب الإبادة " الإسرائيلية الصهيونية الغربية" التي يمارسونها بحق أهلنا في غزة والضفة؛ فهي صورة حية من صور الحروب الصليبية القديمة، عدا عن كون " إسرائيل " اليد الفاعلة إلا أن وراءها أيد غربية تزودها بالعدة والعتاد والأموال والجيوش، ويرسمون لها النهج، ويوجهونها.

نستخلص من ذلك أن مرحلة الحروب الصليبية مرحلة عكف الصهاينة على دراستها، وحرفوها جيدا، وبالغوا في الاهتمام بها؛ تجنبا للوقوع في النهاية ذاتها التي فيها زوالهم، وإنهاء وجودهم؛ مما جعل حربهم مع الفلسطينيين في الآونة الأخيرة حربا وجوديا، كما ندرك حرص الكيان الغاصب على التاريخ، والخطاب التاريخي؛ لإسكات التاريخ الحقيقي، وساعده في ذلك غياب المؤرخ الفلسطيني القوي الذي يدحض كل هذه الخرافات والأكاذيب، وينتصر للتاريخ الحقيقي.

الجميل في هذه الحكاية أن الكاتب أراد من ورائها إظهار الحقيقة التي يريد، ولكنه جعل من شخوصها أجانب غربيين، ولم يجعلهم شخصيات فلسطينية؛ ليظهر في موقف الحياد، وليجعل الآخر بنفسه يكتشف الحقيقة، فبمجيئهم إلى فلسطين ستتغير كل الموازين، ويظهر لهم التاريخ الحقيقي، بدليل ما حصل مع (فلاديمير) في نهاية الحكاية فرأيناه غير قادر على استحمال أكاذيب (سيلفا)، وتاريخها المزعوم لدرجة أنه شعر برغبة بالتقيؤ؛ لقرف ما سمعه فتحجج بالذهاب إلى الحمام، وغادر المطعم دون أن ينتبه إليه أحد، وانتهت الحكاية بقوله: "لم أستطع أن أضبط أعصابي، فقد غلى الدم في عروقي... مضيت، وأنا أشعر بغصة وخناق صدري يكادان يطبقان على نفسي. فقد تذكرت ما قالته لي زوجتي رشيدة قبل

سنوات ولم أصدقها آنذاك، ها أنذا أصدقها بعد رحيلها، موتها وصدقها يدافعان عنها الآن... لم يكن في بالي سوى تلك الكنائس والمساجد التي حوّلت إلى إصطبلات، ومطاعم، وملاه ليليـــة... لكأنهـــا كانـــت جزءا من جسدي... وفقدته" (حميد، 2021، الصفحات 567-568).

المطلب الثامن: حكاية النار المقدسة

تعددت الحكايات، واختلفت مضامينها، لكن الكاتب بسرديته استطاع أن يجعل لكل حكاية منحنى جمـــيلا يجذب القارئ إليه، ويشده باحثا عن أسراره وانعكاساته، وأثناء قراءة رواية "مدينـــة الله " لفتـــت نظـــر الباحثة حكاية النار المقدسة، فوردت في الرواية في استفهام (فلاديمير) عنها في حديثه مـــع الحـــوذي: "ونتخطى الصخرة حيث يتجمهر الناس. أسأل الحوذي: ماذا يوجد هنا؟ فيقول لي: هنا النـــار المقدســـة، ويشير بيده، ويتمتم: نظر هناك، إلى تلك الثقوب في الجدران، فعلا أراها، إنها ثقوب فضية اللون شبيهة بأعشاش الحمام. ويضيف: سنقف أمامها وندعو... لعل النار المقدسة تظهر لنا فنوقد منها شـــموعنا... كانت الأذرع ممدودة بالشموع نحو الثقوب، لعلهم ينتظرونها حقا. فجأة ومن دون إمهال، تبدو النيـــران، إنها تسيل من الثقوب الفضية وكأنها الزئبق. نار طرية لينة... تكاد تسقط ولا تســـقط. عندئـــذ، تعالـــت الأصوات بالأدعية والرجاءات، واضطرب الناس، ومادت الأرض بنا، واشتد الزحام، وما عـــدت أدري إن كنت قريبا من (سيلفا) والحوذي (جو) أم لا... أرى الشموع الصغيرة والكبيـــرة توقـــد مـــن النـــار المقدسة، فيتراجع أصحابها فرحين، وصلواتهم تخرج من لهواتهم حشرجات، أراهم يمررون أصـــابعهم فوق ذبالات الشمع، ويمررونها على وجوههم، وصدورهم، وشعورهم... لكأنها لا تحتـــرق، أو لكأنهـــا نار باردة... وحين بت أدرك وأعي، سألت الحوذي: عن النار المقدسة، فقال هذه أنوار القلب... ودعانا كي نتبعه، وأن ننذر نذورنا، ونصلي من أجل أمانينا... فتقدمنا، على الرغم مـــن الازدحـــام الشـــديد، وربطنا الشرائط، ونذرنا نذورنا، وتمنينا، ثم انسحبنا إلى الوراء نحو البهـــو الوســـيع" (حميـــد، 2021، الصفحات 471-472).

وهذه النار بمثابة أعجوبة خاصة تنفرد فيها كنيسة القيامة، تدعم أواصر المحبة بين المسيحيين وتقويها، ولا سيما أنهم يجتمعون في موضع صلب المسيح ودفنه، وقد وصفها المسيحيون الأرثوذكس " على أنها معجزة تحدث كل عام في كنيسة القيامة بالقدس يوم سبت النور، وهو اليوم الذي يسبق عيد الفصح، يعدها الكثيرون من أكثر المعجزات المصدق عليها في أنحاء العالم المسيحي، وقد وثقت المعجزة أول مرة عام (1106)، وذكرت قبل هذا التاريخ لكن بصورة متقطعة "[1]؛ فينظر المسيحيون إليها على أنها مطهرة للنفوس والقلوب والعقول، ومذهبة للنزوات، وبعدها يتغير الإنسان فكرا وقولا وعملا؛ لأن الإيمان قد غمر نفسه.

وفي سياقنا لا يهم صحة وجود النار المقدسة، أو التشكيك فيها، أو كونها نوعا من أنواع الاحتيال؛ وبنظر الباحثة فإن العامل الاقتصادي يشكل سببا رئيسا وراء وجودها، ولتحقيق مصالح خاصة بالكنائس والأديرة والرهبان القائمين عليها؛ وعلى كل حال فإن النار ترمز دوما إلى روح القدس، وتحمل كل معاني الإيمان والتقديس والمباركة؛ لذا حظيت باهتمام المسيحيين وتقديسها دون التدقيق في حقيقتها.

بعد تناول الرموز والحكايات ودراستها وعكس دلالاتها، نخلص إلى:

1. اقتصر الرمز قديما على الشعر دون النثر غالبا، وبدأ الكتاب يدرجونه في أعمالهم الأدبية، ولكن حسن حميد تجاوز مجرد إدراجه جاعلا منه وسيلة، فابتعد عن الوضوح والإبانة، وأقام النص على الغموض؛ لأن الرمز يقدم حقولا أعمق من التأويل، خاصة أن حديثه في غالبه وطنيا وسياسيا.
2. أظهرت الرموز والحكايات قدرة الكاتب على الإمساك بزمام أموره، وتحقيق وعي جديد بقضاياه، ومن خلال الحكاية أحدث الكاتب صلة بين ما يصدر عن راوي الحكاية، وما هو في الواقع، متخذا منها جذرا يبني عليه القول فيما بعد، واضطلع منها بأفكاره التي أراد إيصالها لقرائه.

[1] وصف معجزة النار المقدسة التي تحدث كل عام في أورشليم، نسخة محفوظة أغسطس 2017 على موقع واي باك مشين.

الفصل الرابع

البعد التكويني، والتوعوي الوطني، والتوعوي السياسي للأثر المسيحي في الروايات

مدخل

لم يكن تأثر اللغة العربية بالمسيحية حديث عهده، بل تأثرت بالمسيحية قبل الإسلام، ولا يخفى علينا أنها لم تستمر طويلا، وضاع أغلبها بعد مجيء الإسلام؛ لما فيها من مخالفة للشريعة الإسلامية، وعبادة لغير الله؛ لذا في بعض الفترات لاحظنا شبه غياب للتأثير المسيحي في الأدب العربي، وسرعان ما أعيد لـــه نشاطه بعد أن ترجم الكتاب المقدس، وأصبح في متناول الكتاب والأدباء، وتمكنوا من قراءته، ودراسته متأثرين به، فبدأ يظهر رويدا رويدا في أعمالهم، وتناصت كتاباتهم معه، وكانت أولى الحالات لأحمـــد فارس الشدياق في كتابه " الساق على الساق فيما هو الفرياق" عام (1852).

من خلال هذا الفصل سعت الباحثة إلى دراسة أثر اكتناه الارتكاز على المسيحية، وكثرة استحضـــارها في روايات حسن حميد، وتنبثق الحاجة إلى هذه الدراسة من قدرة الكاتب على تقديم رؤية جديـــدة عـــن واقع قضيته بوعي ديني، وثقافي جديد تاركا للقارئ كيفية وحرية التفاعل مع ســـرديته، وتظهـــر هـــذه النزعة بوضوح تام للقارئ سواء أكان على دراية في المسيحية أم لم يكن؛ حيـــث إن تركيـــز الكاتـــب المبالغ فيه وامتلاء النص بملامح مسيحية نتيجة خلفيته الثقافية، وتأثره بالشعر الغربي الـــذي لا يحمـــل رموزا إسلامية، وتسامحه مع الدين المسيحي، وفهمه للإنجيل رافضا التعصب ضد المسيحية أو التقليـــل من شأنها انعكس على كتاباته.

لذا ستسلط الباحثة الضوء على العملية المغايرة للمعهود بتحويل الدلالة الدينية في الأدب الفلسطيني عند حسن حميد، وتفرده في المبالغة في استحضار الفكر، والعقيدة، والرمز المسيحي بالقدر الذي لمسناه في رواياته، مع التنويه أننا لسنا بصدد مقارنة أديان أو سلبيات تأثر، وإنما ندرس حقيقة هذا التأثر، وغايته،

والرسالة التي حملها، وهل أدى مهمته على النحو الذي يرتضيه القارئ العربي باختلاف توجهاته الدينية؟ وذلك كله سنتمكن من الإجابة عنه من خلال مباحث ثلاثة، وهي:

المبحث الأول: البعد التكويني للأثر المسيحي في الروايات المنتخبة

الإطار المسيحي كان الزاوية التي استلهم منها الكاتب لبنات أساسية لفعله الإبداعي، وفي الوقت ذاته كانت إطارا جماليا أضيف لشخصياته وأحداثه وإن لم يدرس بشكل مباشر إلّا أنّه بدا واضحا؛ فشحنها بخصال وتصرفات وعادات مختلفة، مضيفا عليها صبغة جمالية تبرز فاتخذ الدين مصدر إلهام، وتأثر به، وجعل من الكتاب المقدس المرجع الأول الذي اعتمد عليه في استسقاء رموزه وحكاياته، ووجد فيه حججا قوية، وطرق إقناع ملهمة ومؤثرة، والعامل في هذا الاندفاع تجاه المسيحية حالة الفقد، وهنا نقصد به فقدان الأرض الأم الحانية، فحاول أن يرمم ما بقي من الوطن بقلمه.

وهنا تجد الباحثة نفسها أمام سؤال مهم: هل إدخال البعد المسيحي يشكل بعدا تكوينيا أم مجرد موضة شكلية جديدة أضيفت للروايات؟

بعد دراسة عميقة متغلغلة في أدق تفاصيل الروايات المنتخبة وأصغرها، وتحليل لقضايا كثيرة فإن إقحام المسيحية في الروايات وقضاياها، وإشغالها مساحات، وصفحات كثيرة منها لم يكن مجرد رغبة الكاتب في التباهي أو إظهار التفوق أو الاختلاف عن غيره من الكتاب، أو مجرد موضة أو قضية شكلية عابرة، وإنما وجد حميد بالمسيح ملاذا آمنا فتمسك به، وأسقط عليه كل ما في داخله؛ باعتباره رمزا دينيا مكافحا، إضافة إلى شعوره بالعجز عن التعبير الصريح بما يجول في مكنونات نفسه، فشطح بخياله وقلمه إلى منقذ آخر رأى فيه منفسا، وقدرة في البوح عما في داخله، وهذا مكنه من إيصال معانيه ورسائله بما استحضره من التراث المسيحي بعبارات وسرديات وحكايات لا تصلح إلا به، فصدى صوته الذي وجده في المسيحية هو الذي فتح قريحته الكتابية، وأعطى نفسه هامش التعبير من خلالها.

وقد أظهر من خلال الأثر المسيحي قدرته على الابتكار، ونقل النص الجامد من العقم إلى الخصوبة والإنتاجية، وجعل من التراث المستلهم المغيب عن كثيرين ركيزة في بناء نصه، والكشف عن الخطر الجاثم على كتف أبناء فلسطين ومناصريها، فمن النص الحاضر، والمرجعي، والتفاعل المحقق بينهما تمكن من أخذ ما يعزز رؤيته، وطوّر الأدب بما يضمن وصوله إلى أكبر عدد من القراء، كما ضمن إنعاش المسيحية؛ لأن استدراجها في السرديات فيه تخليد، ومنفعة لها كما للأدب.

ما استثمر من المسيحية في الروايات المنتخبة شحنها بشحنات إيمانية عميقة ممزوجة بالعزيمة والإرادة، وشحنها بدفقات مختلفة شكلت بؤرا دلالية ذات أبعاد متعددة سواء دينية أو تراثية أو تاريخية أو وطنية مما ساعد في تشكيل دعامات قوية للنص خاصة أن "الموروثات لا تموت بل تظل في ذاكرة الجماعة وبالتالي ذاكرة الأفراد بنسب مختلفة" (الجيار، د.ت، صفحة 19).

شكل تطويع الطقوس الدينية المسيحية حافزا لإنتاج نصوص أعماله الروائية، والاستخدام الواعي للموروث الديني مع التماهي بين وجوده في الماضي وما كان عليه، وإسقاطه على الحاضر، واستدعائه، ودمجه في السرد، والنفاذ من خلاله لنقل معاناته وشعبه أبعد النص أن يكون عابرا أو جماليا فحسب، ومتّعه بدلالات رغم إسباغ رداء المسيحية عليها إلا أنها ظلت معادلا متساميا لقضيته؛ وبذلك برهن أننا "لا نعود إلى غائب أو مخزون، وإنما نعود إلى ذواتنا الثقافية والتاريخية بقصد تحليلها وتفسيرها لمعرفة مواطن الزلل والصواب في بنيتها" (علي، 1988، صفحة 18)، فحميد انتقى بحرص ووعي من الموروث المسيحي ما يلائم سرديته؛ مما ساعده في الخروج بنص أدبي ذي أبعاد بناءة وعميقة.

وبالعودة إلى النصوص فقد جاء في رواية الكراكي: " كم أبكت هذه الملابس أمه وهي تراها مهمدة تنتظرني، تنتظر نشوري، كم صلت أن تراها علي وأنا أمشي بها، الآن أرتديها ثم أواقفها أمام مرآة أمي وأستشيرها... فأجد نفسي مخلوقا آخر... فينشرح صدري، وتزداد القوة في، وفي رجلي تحديدا...

فأمشي باتجاه باب الكنيسة من باب بيتنا هامس الخطا مثل قط بري؛ كي لا تضـــبطني أمـــي" (حميـــد، 2021، صفحة 746). وهنا، كثيرا ما يتشابه حال هدلة وولدها بحال الأسير وأمه عند خروجـــه مـــن السجون الصهيونية، فيتشابهان بالنشور والقيامة.

إن استلهام الأفكار والحوادث المؤثرة أغنى الروايات بصور تتزاوج فيها الأفكار الرئيسة مع العواطـــف المراد بثها في القارئ، الأمر ذاته في حديثه عن تطويب الخال، وغيره، فالإيحاءات الخاصـــة المثـــارة التي استحضرها الكاتب بفنية مميزة، وعالية تدعم الدلالات العامة في فضاء النصوص، وفي ذلك قدرة على إحياء التجارب القديمة، وضمان استمراريتها، حيث إنّ "فعل الاستحضار بحد ذاته هو لا زمـــاني؛ إذ إنه يبدو بلا تاريخ أو دليل ملازم له، إنه في مكانية ثابتة أو لا زمانية، وقد ينبجس الاستحضار داخل الوعي في أي زمان أو مكان؛ مما يسبغ عليه صفة كونه ما وراء الزمان والمكان" (ميرهوف، 1972، صفحة 62).

وقد عرّج على استخدام الموروث المسيحي بذكاء، مكونا ارتباطا فنيا، ومعنويا يتلاحمان معـــا؛ لترفـــد الروايات بروح خاصة تعطي مجالا واسعا للتأويل، وتمنح النص قيمة عالية، فيتضح للقارئ والباحـــث أن الكاتب أظهر تفوقا واضحا في المزاوجة بين الأديان والسرد، فقال: "جرس الألم الطويل يـــرن فـــي أذني" (حميد، 2021، صفحة 456).

من ناحية ثانية فإن التراث الديني يؤخذ منه التأصيل؛ مما يقتضي الرجوع إليه لتأسيس الرواية باعتباره جزءا من ثقافة أفراد المجتمع، وبه يتم معالجة الواقع، وتوظيفه يخدم الزمن والبيئة التـــي خلـــق فيهـــا الكاتب رواياته، وحين يعيد صياغته بما يخدم السياق يرتقي برواياته إلى آفاق أوسع؛ بســـبب التغييـــر والانزياح عن حقيقة الموروث من رموز وحكايات وغيرها إلى ما آل إليه في الكتابة.

إن اعتبار التضمين، والاقتباس من المسيحية ظاهرة أسلوبية بارزة أمر في غاية الصـــحة، فالمســـيحية متغلغلة في روح الكاتب، وثقافته قبل كتاباته، حتى إنّه لم يأت برموز، وألفاظ إسلامية لا في النـــواحي

الفكرية ولا النفسية، ومع ذلك فإن الخلو منها لم يضعف النص أو يخل به، حتى في تسمية شخصياته لم يختر إلا ما تعلق بالمسيحية، مثل: (حنا)، و(ماريا)، و(هيلانة)، و(إلياس)، و(طنوس) وغيرهم، والفعل ذاته مع الأماكن وأسماء العناوين والفصول.

بالعودة إلى الخطاب السردي عند حميد فإنه يشهد له بالبراعة في الحديث عن قضية شائكة لم يجرأ أحد الاقتراب منها، أو الحديث عنها بصراحة كما فعل حميد؛ فسلط الضوء على الرهبنة، وما يتعلق بها من حكايات وأسرار لا يجرؤ أحد البوح عنها، وجعلها بؤرة يرتكز عليها في بعض المواقف، وأسهم تناولها في تشكيل أحداث كثيرة بل وفصول في الروايات، وكله أثرى الخطاب السردي وأضاف جديدا في المعرفة الثقافية، ورغم بعض التفاصيل التي ما كان ينبغي المصارحة بها لهذا الحد وأمكن الاستغناء عنها إلا أنها شكلت جزءا تكوينيا في الرواية أكسبها عنصر الغرابة، والنضوج، والجرأة فطرحها يستدعي كاتبا متمرسا، وعارفا بتفاصيل التفاصيل، وملما بفتات الأمور؛ حتى يتمكن من مواجهة النقاد والدارسين.

ويحيلنا الاقتباس من الدين المسيحي إلى ظاهرة التناص التي أثارت ذاكرة القارئ، وأسهمت في الكشف عن الصراعات التي تدور في داخل الكاتب، وعن الواقع الذي يرغب في إنشاء حكاياته عنه؛ مما يساعد على قراءة الموروثات الموظفة في النص، وإعادة تشكيلها حسبما يريد الكاتب؛ فأضفى على الروايات طابعا جماليا، وفتح النص على دلالات متعددة، وأعطى الروايات أبعادا واقعية، فالروايات ككل في تناص مع الكتاب المقدس والأناجيل.

أما عن أسلوب السرد الحكائي الذي كان مميزا في الروايات المنتخبة، وقائما بها فقد دمج الكاتب جزيئات دينية مسيحية أو تتصل بالموروث المسيحي بحكاياته، وخرج منها بصور معبرة عن واقعه وهمه، فبدا متأثرا بكل ما يعود لتلك المرحلة الزمنية، وعاداتها، وتقاليدها.

ونلحظ أن الإكثار من تناول الرموز المسيحية كان بمثابة الإناء الذي فرّغ فيه حديثه؛ فما نهله من المسيحية مكنه من تحوير الدلالات وفق ما تقتضيه ظروف تعميق مأساة الفلسطيني، ومن هذا الشكل الفني أوحى بعمق الارتباط بين الدين المسيحي، ونبي الله عيسى عليه السلام، والارتباط مع الإنسان الفلسطيني؛ مما مكنّه من تنشيط ملكة الفهم والتأويل؛ وبذلك" يطول أمد التلقي فلا يتم استهلاك النص بسرعة؛ فطاقته التأويلية، وقدرته على تخصيب المعاني هي التي تشجع القارئ على المضي في دروب الكشف ومعاناة الفهم" (العيادي، 2007، صفحة 31). وقد تستعصي الرموز المسيحية أحيانا على الضبط، لكن لا بد من وجود إشارات تكشف عنها، وتوجه إلى التعرف إليها، والإمساك بها، فلإيصال المعاني للقارئ ارتأى توظيف رموز تحمل النص المعاني المقصودة.

في ظل تكرار الرموز والحكايات والعبارات في الروايات المنتخبة، ورغم تأفف بعض القراء الذين لا يستهويهم التكرار؛ تعلل الباحثة ذلك من منطلق إثارة الذهن، وترسيخ المعنى، والإشارة إلى أن هناك أمرا ما يضيء في أعماق الكاتب، ويرغب أن يطلعنا عليه؛ فالبواعث النفسية تشحن النص بعواطف قوية كما في تكرار حديثه عن صلب المسيح، وطريق الآلام؛ ليؤكد على فكرته، ويظهر توجعه مما عانى المسيح وما يعانيه هو؛ فالتكرار " يدخل في عملية الإقناع التي تنطوي على تكرار الشكل والمعنى أو الشكل فقط، أو المضمون؛ لإعادة تبليغ المعنى أو الحجة مرات عدة، وهذا يخلق تأثيرا مستحسنا في المتلقي، ويكشف عن الميول النفسية لدى المرسل والموقف الخارجي" (عكاشة، 2005، الصفحات 170-171).

بهذا الاستلهام استطاع الكاتب أن ينوع في الأساليب الفنية، وأطّر بإرهاصاته على فضاءات الوضع الراهن، والمعاناة الكبيرة فالهاجس الذي يراود حميد هو الذي دفعه إلى الارتكاز على المسيحية بطريقة تعبر عن ثورته، وتمرده على الواقع المعيش، وحقده على الاستباحات الوحشية التي تتعرض لها مقدسات بلاده فربط بين معاناتين متماثلتين في زمنين مختلفين، لكنهما في تجانس فني ذي قيمة عالية.

في ضوء قراءات الباحثة؛ فإن حميد اخترق النظام الأدبي المتوارث، وجعل من النزعة المسيحية ما يشبه الخيط المتين الذي يمسك الرواية، ويربطها من أولها لآخرها، بل يربطها بغيرها من الروايات رغم تعدد خلفيات الأحداث وتباينها؛ وإن إشراك المسيحية ليس بهدف التجديد على الأدب الفلسطيني فحسب، بل هو ثورة على السرديات الإسلامية التي من قلة استلهامها فقد الكاتب الأمل منها، فحاول أن يتحدى الفشل الذي يواصل الرداء الإسلامي في وقتنا المعاصر لطغيان حالة التيه والضياع والتقليد الأعمى الغير مجدي، فأصبح وضع مجتمعاتنا مفكك وضعيف، ولا يمكن الاعتماد عليه، وخير برهان الحرب العدوانية على غزة، وواقعها المرير، فأراد أن يغير في المعايير المستخدمة في الأدب، مدرجات سجلات قولية جديدة ومختلفة.

وببراعته في نسج المعنى وإعطاء ما مضى حياة أخرى قوّى بنية السرد، جاعلا ما استمده منصهرا في الرواية، وجزءا لا يتجزأ منها مع إعطائه قيمة حجاجية، مثبتا جرأته في اقتحام ما لم يقترب منه غيره، ومحققا من الدين، والتراث هوية للرواية؛ ليجعلها أصيلة مبينا أن الدين يرتبط بالأدب بشكل وثيق مهما تطورت المجتمعات البشرية، والإنجيل يعجّ بالحكم، وحياة السيد المسيح منذ ولادته، وصلبه، وانتظار قيامته مليئة بالخيال والتشويق.

وتوظيف حكايات يسوع، وتعذيبه على يد اليهود يزيد الكلام تأثيرا في النفس، وينم عن الصمود، والتحمل من أجل الوصول إلى المبتغى، وبتوظيف المسيحية زادت الأفكار عمقا؛ لأن معركتنا مع اليهود ليست وليدة اللحظة بل هي قديمة جدا منذ ولادة المسيح، فكانت وما زالت المعركة الكبرى التي سترفع التدنيس عن أرضنا كما معركة يسوع الأخيرة معهم، فالكاتب جعل المسيح رمزا أسطوريا كطائر الفينيق رمز الموت والانبعاث؛ وبالتالي جعل روايته أسطورية.

وقد وفق حميد في بناء روايات تاريخية، وسرديات جديدة، تواجه السرديات الزائفة، والأكاذيب المختلقة، والحقائق المزورة، فتقضي عليها، وتقف عائقا أمام التلاعب بالرواية التاريخية.

المبحث الثاني: البعد التوعوي الوطني للأثر المسيحي في الروايات المنتخبة

كل نص في الرواية يلتقي بنصوص أخرى، ونتيجة لهذا الالتقاء ارتقت روايات حسن حميد، فتوظيف الموروث المسيحي عنده كان في أبهى أبعاده وتجلياته، مسخرا ما فيه لقضيته، ومواجها به جميع دجالي التاريخ، والطريقة الشيّقة التي استخدمها الكاتب في توظيف المسيحية كأداة احتجاج على استبداد اليهود وظلمهم وقهرهم وفسادهم في الأرض منذ يسوع حتى اليوم، وتمرده على حال العالم العربي والإسلامي الذي يقف مكبل اليدين عاجزا عن تحرير فلسطين، فرأى تذكيرهم بحكاية يسوع؛ لما له من محبة وخصوصية عند الفلسطينيين، وكيف لا يحظى بقدر كبير من التجليل وهو نبي الله ابن مريم البتول، وابن هذه الأرض فلسطيني المولد والنشأة والنسب.

وانطلاقا من محبة الفلسطينيين لعيسى عليه السلام جنح الكاتب للحديث عن فلسطين من خلاله ففي ذكره وقع نفسي ووطني وسياسي؛ ولذا لم يكن غريبا لكاتب مسلم يحترم الأديان، وأهلها أن يكتب عنها، ومن نافذة أخرى، وعلى الصعيد الشخصي للباحثة فإن وجود روايات ذات ثقافة مختلفة لثقافة الباحث أو الدارس تجعله متذوقا جيدا للأدب، والحال ذاته مع القارئ.

لعل أهم ما يراودنا، وسنبحث عن إجابته هو:

1. هل يؤثر هذا الاستدعاء على البعد التوعوي الوطني للقارئ؟
2. هل نستفيد في قضيتنا من السرديات المسيحية؟
3. هل يتفتح ذهن القارئ على وعي جديد وثقافة جديدة؟

كسر حسن حميد أفق توقعات القارئ في نهجه الذي سار عليه في الروايات المنتخبة، ومن اللافت للنظر أنه رغم إدراكه أن هذا الأمر يجعله في موقف الانتقاد، ليس بسبب المسيحية ذاتها، بل لأنه يعتنق الإسلام، ومن باب أولى أن يكون على هذا القدر من الدراية به، وأن يبدو متأثرا به بشكل أكبر، جاعلا منه محركا رئيسا لرواياته. وتلتمس الباحثة له العذر فربما أراد إظهار الوجود المسيحي، وتجذره في

هذه الأرض؛ وبالتالي إشراكه في المأساة، كما أن الإسلام فيه تحفظ أكثر من المسيحية، ومخالفة لكثير من الأفكار والمعتقدات، والكاتب أراد أن يتجاوز هذا التحفظ؛ ليعبر عن المأساة المعاصرة، وينفس عن واقعه المتأزم، والمهزوم باللجوء إلى ما يثير وعي القارئ، فيتمكن من إحالة ذهن المتلقي إلى مقصده، ويشد انتباهه مدعوما بالحجة والبرهان، فالنهوض بالانفعالات، والوجدان الجمعي لا يتم إلا بالأديان؛ لأنها كفيلة بإقناع الإنسان، وإرضاء رغبته الملحة في المعرفة.

ويدلّ لجوء الكاتب إلى المسيحية على سعيه الدؤوب في استثارة قضيته باستمرار، وبطرق شتى؛ لذا تنحى عن المنحى الإسلامي؛ لأن القارئ في وعيه ما يكفي عنه؛ لكثرة إدراجه في الروايات، وبالأخص الوطنية منها، فاستعار من الدين الآخر ما فيه معاني المباركة والمحبة والسلام، وما يدعم قضيته ويرسخها.

أما عن تأثره بحادثة صلب المسيح، وتضمينها بشكل واضح، ومفصل فترتأي الباحثة أنه أراد أن يعلي من قيمة المقاومة الفلسطينية باختلاف أحزابها، وأن يمنحها تقديرا عاليا، وأن يظهر تضحياتها الكبيرة جاعلا من المقاومة وسيلة، وغاية دائمة الحضور متسامية على آلامها، لا يقلل من عزيمتها شيء؛ وبذلك يشتغل على وعي القارئ المتشكك بانتصارها، أو الذي يتأرجح إيمانه بها بحتمية دعمها وحمايتها، واليقين أنها السبيل الوحيد لنصرة الأرض المقدس المصلوبة وتحريرها، وأنّ قضية فلسطين عادلة لا يحق لأحد أن ينكرها مهما بلغ جبروت الصهاينة وطغيانهم وتضليلهم للحقيقة، فيبث الأمل في نفوس قرائه، ويلقي بالتفاؤل على مستقبل اقترب بزوغ فجره، وحقيقة ما يحصل اليوم من طوفان الأقصى، وصمود المقاومة خير برهان على هذه الرؤية.

إنّ وجود ما يتعلق بالمسيح على وجه الخصوص يوحي بمدى الألم الواقع على الفلسطيني من أجل كرامته وكرامة وطنه، فيستشعر القارئ العذابات الكثيرة، والمتكررة التي يتعرض لها كل فلسطيني في داخل الوطن كان أو خارجه منذ النكبة حتى اليوم.

فالدين المسيحي مؤثر قوي في فكر القارئ، وقادر على استثارة ما في وعيه، وتخزين الدلالات واختزالها. ووجد حسن حميد فيه تفريغا لجميع المشاعر السلبية التي يحملها، والإحباط الذي يعانيه، وبترحيله الماضي إلى الحاضر، وبالعودة إلى الملاذ الروحي الآمن انعتق من الواقع المتأزم، مستوحيا من السيد المسيح صورة الكل الفلسطيني بأطفاله وشبابه ونسائه وشيوخه؛ مما يجعله حقيقة ملموسة عند القارئ، وبالتي يصبح رمز فلسطين المنتصرة.

ومن حكاياته جعل سرديته ممزوجة بعواطف جياشة ترسخ رؤية الكاتب عند القراء وتعمقها، ومنها: "لامني الرهبان كثيرا؛ لأنني وافقت على تخزين بعض الأسلحة داخل الدير، قالوا لي إنني أمد ألسنة اللهب إلى داخل الدير، وأجعل أرض الدير مداسا للإنكليز، فشرحت لهم طويلا، أننا بعملنا هذا لا نمد ألسنة اللهب إلى داخل الدير، وإنما نشق للدير دربا نحو التاريخ؛ كي لا نكون خارج التاريخ، وبعيدا عن الناس. قلت لهم إننا بعملنا هذا نكون داخل الكتب، وداخل الكلام... ولا نكون على الهامش" (حميد، 2021، صفحة 314)، فالقائمون على الدير كانوا على قناعة تامة بالدور الذي على عاتقهم، وأنهم شركاء في القضية، والدفاع عن الأرض، ورغم تردد البعض إلا أنهم مدركون لأهمية هذه المشاركة، وأنها ستسجل لهم، وتخلدهم كتب التاريخ.

فبتسليط الكاتب الضوء على هذه الحقبة التاريخية المهمة، وإحيائها حافظ على تراث تاريخي عظيم من التغييب، بهذا القدر من التأثر أثار حميد همة المسلمين والمسيحيين الشرقيين (خاصة أن أكثرهم هاجر فلسطين) تجاه الوطن، والالتزام نحوه، وأعاب تقاعسهم من جهة، ومن جهة ثانية رفع المستوى المعرفي بالمسيحية عند القارئ المسلم، وأهله لفهم هذه الديانة، والخصوصية التي تحظى بها في قضيته، وبصره بأهمية كونها جزءا من تاريخ فلسطين الحقيقي الشاهد على أنها لم تكن يوما أرضا بلا شعب، ومن جهة ثالثة أثبت للقراء اجتماع الدينين على القضية الوطنية، واتفاقهما على قدسيتها رغم الفجوة الكبيرة بينهما.

لقد أثار حميد في وعي القارئ مسيحيا أو مسلما ضرورة الحفاظ على التعايش المشترك بينهما، والدعم البناء، وحقيقة في مثل صراعنا يصعب الفصل بين دين ودين، أو الاتكاء على واحد دون التأثر بالآخر، وما أكثر حاجتنا للتعايش مع الآخر في ظل الطائفية التي تحاول زعزعة أمن وحدتنا، فتمكن من الحفاظ على شريحة رئيسة مكونة للمجتمع الفلسطيني، خاصة أنه واع لهذا الأمر، والمسيحي شريك كما هو في الوطن، وقد دفع وما زال يدفع ثمن الدفاع عنه، والقارئ سيكتشف أن الكاتب قصد التحذير من الانجراف وراء الأقوال التي تحرض على مسيحيي فلسطين أو تلغي دورهم، وبحكاية الثائر الذي مات بين أيدي الرهبان في الدير عزز أواصر المحبة، واطمئنان كل منهما للآخر" كان مغطى بالدم، جسده أشبه بنافورة الماء، كان مثقبا بالرصاص، ما كنا قادرين على وقف نزيف الدم، فمات، مات وهو ينظر إلينا، بدا لنا كطفل ينام بهدوء، يفتح عينيه ويغمضها، وحين يطمئن إلى وجودنا قربه، يغمضها الإغماضة الأخيرة. أراد الثوار أن يأخذوه إلى قريته في الليل، فرفضت، خفت أن تصير جثته مصيدة لهم، ولأهله في القرية، قلت لهم: هذا حصة الدير، سندفنه بجوار الدير حرصا عليكم، وعلى أهله" (حميد، 2021، صفحة 313).

بناء على ما سبق فإن الباحثة خلصت إلى أن العامل القومي كان واحدا من الأسباب التي دفعت حميد إلى التراث المسيحي، ولا سيما معايشته لأخطار كثيرة، وجهات مغرضة تسعى لصنع الفتن، فدفن الصراع السياسي بين المسيحية والإسلام من خلال عرضه لصورة المسيحي الشرقي المختلف كليا عن المسيحية البروتستانتية، ومع الإيمان بإيجابيات التأثر بالمسيحية إلا أن القارئ سيصرح بمبالغة الكاتب في استخدامها، و أن سلبياتها تتمثل في مخالطتها تفكير القارئ المسلم وربما زحزحته، ولا سيما إن عاد للقراءة حول العقيدة المسيحية؛ وبالتالي يمكن الإخلال بمعتقداته إن كان ضعيف الإيمان. كما أنه وجب على الكاتب أن يخصص مساحة ولو صغيرة لتمجيد انتصارات المسلمين فهي أيضا لها وقعها عند القارئ.

وبوعي الباحثة فإن تآمر اليهود على السيد المسيح؛لأنه سفّه بتعاليمهم وأحلامهم، وشذّ عن خططهم الجهنمية، وأساليبهم الملتوية في الحياة، كان دافعا لمحاولاتهم العديدة القضاء على المسيحية في مهدها، فغايتهم إفناء المسيحية التي تعارضهم، ولا تؤيدهم كما يفعلون مع الإسلام، فمعركة الفلسطيني مع اليهود باقية حتى تطهير الأرض منهم، ورفع تدنيسهم عنها، وهذا التأثر الحميمي يمثل عربون محبة بين أطياف الشعب الفلسطيني شركاء النضال، فالوطن هو الجوهرة التي تجمع بين أفراد الجماعة، وهذه رسالة سامية وخالدة حمّلها حسن حميد في رواياته.

المبحث الثالث: البعد التوعوي السياسي للأثر المسيحي في الروايات المنتخبة

ارتكزت الباحثة في هذه الجزئية من الفصل على توضيح الفرق بين المسيحية الشرقية والمسيحية الصهيونية (البروتستانتية)، ولعل هذا الأمر أهم ما يجب أن يثار في وعي القارئ السياسي، فليس بمجال القول إنهما واحد، وشتان ما بين هذه وتلك.

وانطلاقا من هذا الوعي تتخذ الباحثة من دراستها منحى آخر مخالفا للمعهود، خاصة أن للأدب وظيفة سامية وشاملة؛ فوظيفة المثقف حسب إدوارد سعيد هي معارضة الوضع القائم في زمن الصراع، وتأييد المجموعات المهمشة التي تتعرض للظلم والإجحاف؛ أي تلك المجموعات غير الممثلة التي تحتاج إلى صوت يمثلها ويعلن وضعها للعالم (حفناوي، 2011، الصفحات 269–270)لذا لا بد من التعرج على قضاياه المخفية التي يسير بها، ويصعب اكتشافها بوضوح، فعلينا البحث عما هو خلف الأدبيات، والاطلاع على الأبعاد الأخرى خصوصا السياسية منها، ففي قضيتنا لا يجوز أن لا يعالج الهم الوطني، والسياسي، وإن حدث وزلّ الكاتب فلن يكون ابن قضيته.

وعندما نعالج احتفاء حسن حميد بالمسيحية، ونقصد هنا المسيحية الشرقية يؤجج داخلنا أهمية التفريق بين الشرقية، والبروتستانتية، وحقيقتهما واتجاهاتهما، حتى لا نقع في الخطأ، ونظلم واحدة على حساب الأخرى، فالقضية الفلسطينية بالطبع قضية كل مسيحي فلسطيني، وتمثل لهم قضية

وجودية؛ لأن هذه الأرض بدأ تقديسها، وحظيت بالمباركة منذ أن بشرت مريم العذراء بكلمة الله المسيح عليه السلام.

كما يجب أن نقف اليوم بشكل جدي لمواجهة أفكار، وعقائد، وحضارات قائمة تملك كل أسباب التفوق التي سخرتها لدعم ما يسمى " إسرائيل"، وقد لمسنا ذلك بشكل صريح، و خفي في الروايات، عن ذلك قال حميد: " الآن لا كتب بيض ولا سود، الآن مشاريع لقسمة الأرض، والحضارة، والتاريخ، والمدن، والمياه ما بين أهل البلاد، واليهود الذين تقاطروا إلى البلاد بمئات الألوف من بولونيا، وهنغاريا، وألمانيا، وأوروبا، أمريكا تدخل إلى البلاد بقوة غير عادية، قوة مستمدة من قوتها بعد قطفها لانتصارات الحرب العالمية التي انتهت بانتحار (هتلر)، وهزيمة ألمانيا، وظفر الحلفاء ومن والاهم... برأس العالم، بدت أمريكا وكأنها بائعة توابيت لدول العالم التي تحاربت حتى الانطفاء الأخير. اليهود نقلوا مراكز قوتهم من المدن الإنكليزية والأوروبية إلى أمريكا، فقامت أمريكا، وتقدمت صفوف المدافعين عن اليهود... أسكنتهم في البلاد، واستصدرت قرارات الأمم المتحدة لصالحهم، ونقلتهم من أوروبا إلى هنا" (حميد، 2021، صفحة 367)، فالكاتب قصد إظهار ما يحاك للبلاد من مؤامرات قبل مجيء اليهود، وليس الآن فقط، فمنذ انتهاء الحروب الصليبية والمؤامرات تحاك ضد مسيحيي الشرق والمسلمين، وقد قتل في هذه الحرب الكثير من المسيحيين كما المسلمين.

وما يثير الحديث عن وجود المسيحية الصهيونية، ويجعل منها موضوعا حماسيا للدراسة الكره المتبادل بين المسيحيين واليهود، وغلبة التوتر، وعدائية علاقتهما ببعضهما منذ ولادة المسيح، وإيمان اليهود بمعتقدات كثيرة تضطهد المسيحيين، منها:

1. "من يفعل خيرا للمسيحيين، فلن يقوم من قبره قط" (القرضاوي، 2000، صفحة 172).
2. " يسمح لليهودي أن يكذب،ويشهد زورا؛ للإيقاع بالمسيحي؛ فاسم الرب لا يدنس، ولا يحدف به حين نكذب على المسيحيين" (القرضاوي، 2000).

وقد وثق الكاتب تعديهم على حرمة الأماكن المسيحية، وعدم احترامها في أكثر من موقف، منها:

"جاؤوا أكثر من مرة، وعاثوا فسادا في الدير، فتشوا الأروقة، ودخلوا إلى المستودعات... لم يراعوا قدسية الدير، ولم يحترموا المكان، في المرة الماضية كسروا العديد من قطع الفخار في الرواق... وهم يتراكضون على نحو هستيري، لكأنهم كانوا متأكدين من وجود الثوار في الدير، لكنهم لم يجدوا أحدا، فخرجوا مهزومين" (حميد، 2021، صفحة 311).

ومن المعروف أن الأباطرة المسيحيين أصدروا مراسيم كثيرة؛ لحرمان اليهود من لغتهم العبرية، واعتبار دينهم دينا لا يسمح الجهر به، وبلغ عداء المسيحية آنذاك إنشاء أديرة تقوم في جوهرها على عداء اليهود، وفي العصور الوسطى شهدت أوروبا أحداثا دامية من الاضطهاد لليهود، وقد دونت في كتب التاريخ.

ومع تصاعد قوة التيارات الإسلامية، وتضاؤل حجم القومية العربية التي شارك في قيادتها المسيحيون، وتأثرهم بالهجرات المتتالية، فتقلصت أعدادهم نسبيا، وأصبحوا قلة قليلة مقارنة مع المسلمين، أضف إلى ذلك دور الإعلام الغربي في بث أفكار توتر العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، وتؤدي لتكوين صورة سلبية عن مسيحيي الشرق في المجتمع الإسلامي.

لقلة الباحثين والدارسين الذين يواجهون الإعلام الأوروبي المضلل وجب التنويه إلى حجم الخطر الذي يتبع وجود المسيحية الصهيونية[1] والذي خلصت إليه الباحثة من قراءاتها عنها، ويتمثل في:

1. أنها لا تمثل المسيحية الحقيقية في شيء.
2. تمثل غطاء سياسيا للكيان الصهيوني.

[1] المسيحية الصهيونية: تعبير استخدم لتعريف أي مسيحي يؤيد انطلاقا من فهم وتأويل الكتاب المقدس خاصين به عودة اليهود جميعا إلى إسرائيل، ويدعم زعمهم بحقهم في أرض فلسطين كلها، ولذا ينكر حقوق الفلسطينيين بكلمات أخرى، فإن ذاك الشخص مسيحي يتبنى الأيدلوجية الصهيونية، ويحولها إلى لاهوت، ويعمل جاهدا على تحقيقها.

3. تنهض على العنصرية، والقتل، والتدمير، واقتراف الجرائم، دون رادع، مجحفة بعيدة عن الإنسانية.

4. تمثل تيار المآسي، والمجازر، والمذابح البشرية، فمثلا تعرض المسلمون لمذابح وحشية في البوسنة والهرسك (1992)، ومناطق أخرى في العالم.

لذا لزم تبيان الإشاعات التي تسيء للمسيحية الشرقية وتكذيبها، ونبذ الكراهية والتعصب، والسعي لإقامة وطن حر، والتصدي لخطر البروتستانتية التي تستهدف المسيحيين الشرقيين والمسلمين معا، وهذا ربما ما لجأ إليه حسن حميد من خلال أدبياته؛ فجعلنا نستشعر أن المسيحية الشرقية حية ترزق، وأن لها فكرا، وعقيدة، ورؤية، ومرجعيات مغايرة للبروتستانتية، ولا تماثلها بأي وجه من الوجوه.

ظهور هذه الطائفة جاء متزامنا مع الهزيمة العربية الإسلامية في الأندلس، فبعد أشهر من سقوط الأندلس بدأت فكرة حملات صليبية جديدة؛ لاستعادة القدس، فجذورها بعيدة جدا في التاريخ ليست وليدة اللحظة. وشكل مسيحيو البروتستانت أساس المشكلة، وشجعوا اليهود على القدوم إلى فلسطين لاعتبارات تخصهم، ولا سيما أن قيام الكيان الغاصب بنظرهم إعادة لقيام مملكة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، واستندوا على اللاهوت المسيحي في العهد القديم، والعهد الجديد.

وأخذ (مارتن لوثر) يفكر بطرد اليهود إلى فلسطين، وكان يؤمن بسفر الرؤيا الذي فيه مجيء المسيح، وكان حاقدا على الإسلام والمسيحية الكاثوليكية، وأخذت إنجلترا تنشق عن الكاثوليكية بشكل جزئي، وعملوا على إعادة صياغة الدين من جديد[1]، وأراد الأصوليون " أن يحققوا إرادة الله، سواء أراد الله ذلك أم لا فالأصولية والصهيونية المسيحية كأحد أشكالها تشوه جوهر الدين" (د.م، 2008، صفحة 148).

[1] جمعية لندن التبشيرية التي تسمى " جمعية مساعدة اللاجئين اليهود " والمسؤول عنها فريد لينذر دعمت اليهود وسهلت عليهم الطريق.

وتؤمن البروتستانتية بأن تجميع اليهود في فلسطين أولى الخطوات الأساسية قبل عودة المسيح، وأن هذا الأمر يعجل في عودته لتخليص البشرية على زعمهم، وتمتلك المسيحية الصهيونية "حركة تبشيرية قوية داخل الجماعة المسيحية في الأرض المقدسة، وفي أمكنة أخرى من العالم العربي، وفي أغلبها طوائف تأتي من الولايات المتحدة الأمريكية لتكسب معتنقين لعقليتهم وأيدولوجيتهم، وأصبحت قوى فعالة انطلاقا من تقديم نفسها بأسلوب غربي؛ أي بعقلانية مزعومة، وعلى أسس أخلاقية، الأمر الذي يجعلها مقبولة وجذابة" (د.م، 2008، صفحة 147).

لا مناص من الاعتراف بأن الحركة المسيحية الصهيونية تشكل أخطر المذاهب على القضية الفلسطينية، وعلى شعوب العالم المعرضة للابتزاز والخضوع، وهي في جوهرها "عقيدة دينية متطرفة، يذعن لها أشياعها، يسوقهم التعصب، والغرور العنصري قسرا، بلا وعي ولا إرادة، وأساسها في زعمهم تعاليم التوراة التي تنص على أن الله تعالى وعد اليهود بملك عالمي أبدي، واستخلفهم في الأرض خالصة لهم من دون الناس" (السماك، 2000، صفحة 13).

ويطلق عبد الوهاب المسيري كلمة صهيوني على "كل من يحمل نفس الفكر سواء أكان يهوديا أم مسيحيا، ويرى أيضا أنها ظهرت في إنجلترا في الأوساط البروتستانتية فهم يعدون اليهود شعبا مختارا، يجب أن يهاجر إلى القدس، وأطلق عليهم فيما بعد الصهيونية المسيحية. (المسيري، 1999، صفحة 136،139)

وحقيقة فإن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية هما اللتان تقودان هذه الحركة " طوّقت القرية، وجابتها الأضواء الكاشفة، دخلت سيارتان إنكليزيتان إلى القرية، وبداخل كلّ واحدة منهما العديد من العساكر...لم يترك عساكر الإنجليز القرية إلا قبيل غروب اليوم الثاني..." (حميد، 2021، صفحة 276)، وأضاف: " فقد أحاطت بالقرية كبنيات جديدة لليهود، كبنيات صار لها أسماء عبرية، امتلأت باليهود القادمين من الدول الأوروبية..." (حميد، 2021، صفحة 276)' وهو ليس بالغريب فالصهيونية

نشأت بين أحضان مسيحيتهم، وفي عقر دارهم؛ لذا يصح القول إن الحركات الصهيونية مسيحية قبل أن تكون يهودية من حيث الدين والمنشأ. وما يوضح تلك الحقيقة مخالفة اليهود المتدينين لها، ومعارضتهم أفكارها ومعتقداتها، ومحاولة عرقلتها، وإيمانهم بالقضية الفلسطينية وحق شعبها بالتحرر والاستقلال مهما اختلفت توجهاتهم الدينية.

إن هؤلاء المسيحيين الصهاينة أشد حرصا على وجود تحالف قوي مع الصهيونية اليهودية أكثر من اليهودية نفسها وهو ناجم عن معتقدات تفرض مثل هذا التحالف "وهذا الحلف مبارك مدعوم من الكنيسة البروتستانتية الأكثر سيطرة ونفوذا داخل الولايات المتحدة، مع الأخذ بعين الاعتبار كثرة الكنائس المعارضة له، إلا أن الكلمة الأعلى في هذا الشأن هي للكنيسة المسيطرة على مقاليد الحكم والممسكة بزمام الإدارات الأمريكية المتوالية" (السباتين ، 2012، صفحة 274). ولجأت هذه الصهيونية " للقيامة البهية"؛ لبث الأمل بالنصر، وتحقيق المطامع، ولو أسمينا احتلال اليهود لفلسطين الاستعمار الاستيطاني المسيحي البروتستانتي لن نخطىء.

إذن استعمار فلسطين من قبل اليهود المتصهينين جاء بناء على جهود المسيحيين المتصهينين في بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة، والدليل على ذلك ما جاء في رواية أنين القصب، حيث قال الراوي: " الإنكليز يستعدون لتسليم البلاد إلى اليهود، قرى دمّرت، وبيوت نسفت، وكبنيات اليهود تنتشر فوق التلال..." (حميد، 2021، صفحة 330)؛ ممّا جعلها تنظر لمسيحيي الشرق على أنهم ضمن دائرة الاستهداف لمعرفتها أنهم يشكلون عنصر مقاومة لها في فلسطين، فلا أحد يفهمهم ويفهم ألاعيبهم بقدرهم؛ لذا ينظرون إليهم بعداء وكراهية مماثلة لعدائهم للإسلام " فالرغبة في قهر العرب من العوامل الرئيسة التي شجعت الصهيونية المسيحية على تجاهل الحقوق الطبيعية الشرعية للفلسطينيين" (السماك، 2000، صفحة 18).

وتشكل المسيحية الصهيونية قوة تأثير كبيرة، وتعد قناعا من أقنعة اليهود، وتؤيد اليمين الصهيوني أكثر من اليساري؛ لموافقته التامة لأهوائها، ويمكن اعتبارها الأم الحنون للابنة البارة " إسرائيل"، وترى نفسها ومن في صفها مباركا من عند الله، أما من يعاديها فهو ملعون.

كما طوعت نفسها لخدمة اليهود، ورضت أن تكون مطية لهم، وسخرت خيرات بلادها لهم جاعلين من مقدرات شعوبهم خدمة للصهيونية اليهودية، وإقامة الكيان " الإسرائيلي الصهيوني " في فلسطين يمثل ممرا آمنا لهم في المنطقة كلها، وقد أقر اليهود بمساعدة المسيحية الصهيونية لهم، ودعمهم بالمال والعتاد، والغطاء الإعلامي، ومساعدة المهاجرين الجدد، استخدام حق (الفيتو)، وتعمل على قمع المظاهرات المنددة بالعدوان الصهيوني الإسرائيلي على فلسطين، اعتبارا من أنها بالنسبة لهم رأس الحربة الإمبريالية، وتعد قوة استثنائية يجب مجابهة أي احتجاج ضدها؛ لتوطيد الوجود الصهيوني وتسخيره خادما لحضارتها الغربية، فعلاقتها مع اليهود في المنطقة قائمة على المصلحة والانتفاع، والسعي لجعل العرب تابعين لها؛ وبالتالي تدمير الحضارة العربية وهزيمتها.

وتدعم المسيحية الصهيونية إعادة بناء الهيكل؛ تحقيقا للنبوءات، فالعامل المشترك بين الصهيونتين قضية النبوءات فكلتاهما تنظر إلى فلسطين بأنها أرض النبوءات المحققة، فالأرض التي شهدت ميلاد يسوع وقيامته وصعوده " هي ذاتها سيعاد فيها بناء الهيكل؛ لتقدم به الذبائح من جديد، وليرث شعب الله المختار (اليهود) الأرض، ويدخلوا في مملكة الرب" (السباتين ، 2012، صفحة 37)، فالمسيحية المتهودة تعول كثيرا على اليهود، وتهول في دعمهم ونصرتهم؛ دعما للنبوءات المشتركة، ومع أنه لم يذكر في الكتاب المقدس ولا نبوءة تساند إدعاءهم بأن قيام دولة صهيونية في فلسطين أمر حتمي، ولا يوجد فيه ما يروج لفكر صهيوني، فكلها اختلاقات مكذوبة، لكنهم أقنعوا أنفسهم بأن القدس "مدينة الرب"، وأنها سماوية شهدت أولى البشائر المسيحية فلا أحقية لأحد بها سواهم، وعدّوها معادلا تكوينيا ثقافيا وحضاريا وتاريخيا، واستدلوا على نبوءة بناء الهيكل من سفر (حزقيال) الذي جاء فيه:

"ويقيمون في الأرض التي وهبنا لعبدي يعقوب التي سكن فيها آباؤكم، فيستوطنون فيها هم وأبناؤهم وأحفادهم إلى الأبد، ويكون عبدي داود رئيسا عليهم مدى الدهر، وأبرم معهم ميثاق سلام، فيكون معهم عهدا أبديا، وأوطنهم وأكثرهم، وأقيم مقدسي في وسطهم إلى الأبد. ويكون مسكني معهم فأكون لهم إلها، ويكونون لي شعبا، فتدرك الأمم أنني أنا الرب مقدس إسرائيل حين يكون مقدسي قائما في وسطهم إلى الأبد"[1].

أما عن خطورتها فتكمن في تحالفها مع قوى أيدلوجية كثيرة مشابهة لها، وهو ما ذكرناه في مواقف كثيرة أثناء دراسة الروايات المنتخبة، والمصيبة أنها أصبحت قوى سياسية عظمى تسيطر على العالم وتديره. وتصور الصراع في فلسطين على أنه ديني بحت حتى تستعطف العالم تجاه اليهود فتصورهم بأنهم محاصرون وسط مسلمين مهيمنين، رغم أن (غولدا مائير) نفسها تنكر الوجود الفلسطيني مسيحيا وإسلاميا، وصرحت بذلك لعدة صحف، ووعدت الفلسطينيين الموجودين لاجئين، فثوابتهما تهاجم كل ما هو فلسطين، وتبغيان استئنائه من تراث البشرية، ولا تخشيان في الله لومة لائم في مواجهة كل فلسطيني يقف في طريقهما.

وهنا تلخص الباحثة مجموعة من أهدافها، وهي:

1. المساندة المطلقة وتعزيز أهداف " إسرائيل " وسياستها.
2. خلق شعور بالغربة لدى المسيحي الشرقي.
3. غسل أدمغة الشباب المسلم، وتنشئته على نمط حياة غريبة من خلال الغزو الثقافي، والفكري الذي تمارسه.
4. السيطرة على العالم، حيث تعدت حجمها، وأصبحت أكبر بكثير مما كانت عليه.

[1] سفر حزقيال 37:25-28.

وما زاد الوضع تعقيدا عدم التفات كنائس العالم الكاثوليكية والأرثوذكسية إليها بشكل جـدي، والوقـوف في وجه إجرامها، ومحاولة بعض الجهات المغرضة الترويج لفكرة إسلامية القدس والقضية الفلسـطينية بهدف رغبتها في تحويل الصراع إلى ديني فقط، وهذا غير صحيح؛ ففلسطين لكل الأديـان السـماوية، والكل مطالب بالنضال لاستعادة حقوقها المغتصبة.

أما الادعاءات التي تقول بهجرة مسيحيي فلسطين بسبب خلافاتهم مع المسلمين فغيـر صـحيحة، فقـد هاجروا بسبب ضغوطات المحتل الإسرائيلي ومضايقاته، والإجراءات التعسـفية بحـق الفلسـطينيين، فتناقص أعداد مسيحيي فلسطين أمر لا جدال فيه، لكن الفارق أن الفلسطيني المسيحي لا يتحلى بصـبر المسلم، ولا يملك بعضهم قدرة تحمل المسلمين وهذا يعود لقضايا في عقيدة المسلمين لسنا بموقع الحديث عنها، ولكن هناك الكثير من المسيحيين الفلسطينيين الذين واجهوا الصهيونية، وشاركوا بتأسيس الحركة الوطنية الفلسطينية، وسخروا طاقاتهم لمواجهة الاستعمار سواء البريطاني أو اليهودي؛ ومـنهم: نجيـب نصار، وعيسى العيسى، وتوفيق كنعان، وجورج حبش، ووديع حداد، ونايف حواتمـة، والأب إبـراهيم عياد، وغيرهم كثر.

بالعودة إلى جوهر الصراع فإن المشكلة تكمن في المسيحي الشرقي العادي غير المطلع علـى حقـائق المسيحية الصهيونية، والذي لا يستطيع التمييز بين حقيقتها وما تدعيه، والتهديد الذي تشكله لحضـورهم وهويتهم وعقيدتهم، وما تبذله لجعل المسيحيين الشرقيين في موقف لا يحسدون عليـه أمـام شـركائهم الإسلاميين.

ننتقل إلى الكنائس في فلسطين؛ فهي لا توافق السفارة المسيحية الصهيونية في القدس، وقد صرح عطـا الله حنا بقوله: "إن هذه السفارة لا تعترف بأي كنيسة من الكنائس المحلية، ولا تتعـاون معهـا، بـل إن الكنائس أصدرت مرارا وتكرارا بيانات تهدد بهذه السفارة المشبوهة، وما تقوم به من دعـم للاحـتلال وهي تسيء للعقيدة المسيحية، وتشوهها، وتحرف تعاليم الكتاب المقدس(الإنجيل). إن هذه المجموعـات

ليست مسيحية على الإطلاق، ولا تنتمي لأي كنيسة رسمية، بل هي بدع وجماعات محورة للديانة المسيحية، ومنتحلة لصفة المسيحية من دون حق؛ إذ إنها أقرب إلى الصهيونية من أي شيء آخر" (العربي، 2000).

ثم إن اللاهوت الفلسطيني لا توافق أفكاره هذه الجماعات، بل يخالفها، وما شهدناه في الروايات المنتخبة خير برهان. فالكاتب أراد أن يفند وجود تشابه بين المسيحية الفلسطينية والمسيحية الصهيونية؛ فالأولى رمز المحبة والسلام، أما الثانية؛ فرمز للقهر والظلم، بل هي سبب كل ما حلّ بالشعب الفلسطيني. والمسيحيون الفلسطينيون يرفضون كل الحجج الصهيونية والغربية لاحتلال اليهود لفلسطين، ويلتفون حول أبناء شعبهم المسلمين. وعن ذلك يقول المطران عطا الله حنا:

"إن كل ما في القدس حتى أبنيتها وحجارتها تصرخ بأنها عربية، لقد عمل الإسرائيليون دائما على تهجير المسيحيين من القدس، فقبل عام (1967) كان يعيش فيها أكثر من (25) ألفا من المسيحيين الذين ينتمون إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فقط، بالإضافة إلى غيرهم من المسيحيين. أما اليوم، فيوجد فقط (8) آلاف مسيحي بشكل عام. وهناك سعي دائم من قبل الإسرائيليين لاحتلال البيوت، وإعطائها للمستوطنين اليهود بهدف إضفاء صفة يهودية على المدينة المقدسة، ويجب العمل بكل ما بوسعنا؛ لمواجهة هذه السياسة والتصدي لها" (رؤية المسيحيين الشرقيين للقضية الفلسطينية وتهويد القدس، بمناسبة الذكرى الستين لإعلان دولة إسرائيل، د.ت).

ختاما، من خلال الرواية واجههم الكاتب مخبرا إياهم أن مسيحيي فلسطين أصحاب حق. ولولا المسيحية الصهيونية لما كان أي وجود للكيان الصهيوني اليهودي في فلسطين، ولما طغى الصهاينة في البلاد وظلموا العباد، فإجرامهم في غزة والضفة في وقتنا الحاضر (2024) أكبر دليل على خطرهم الوحشي، وعنفهم المتزايد.

واليوم أصبح هناك وعي عالمي حول موضوع الصهيونية، حتى أدرك مسيحيو الغرب الحقيقة الصادمة لوجه الديمقراطية المزيف؛ لذا يواصلون الهتاف لفلسطين، والاعتصام نهارا موصولا بالليل؛ وهم بذلك يدافعون عن جذورهم الحقيقية، وعن إيمانهم بيسوع السلام، وعن مقدساتهم المكلومة، فيتوقون كما نتوق إلى سلام بلادنا المغيب، وحريتها المسلوبة.

ونحن في أشد الحاجة إلى دراسات فكرية ودينية وسياسية وحتى أدبية تناقش، وتعلن خلفيات هذه الحركة، وعلى كنائس العالم الشرقي أن تتواصل بشكل فاعل مع كنائس العالم الغربي، وتوضح لها الادعاءات، وأنه من الواجب على الجميع أن يتكاتف لمواجهة هذا التحدي، ونختم باستشهاد الشيخ المصباحي الذي رحل " وهو يرى الإنكليز يقربون اليهود، و يستجلبونهم، ويجمعونهم، ويغضون النظر عن جرائمهم، وأفعالهم، ويمهدون لجعل البلاد لهم" (حميد، 2021، صفحة 343)، فلا محكمة عدل دولية توقفهم، ولا أحد قادر على ردعهم؛ فخلفهم قوى عظمى تمهد لهم، وتبرر أفعالهم.

الخاتمة

اعتنت هذه الدراسة بموضوع " الأثر المسيحي في روايات حسن حميد"، وبتأثر الكاتب به، وكان الأثر المسيحي في رواياته رافعة لقضيته الوطنية، والثقافية. وبعد الوقوف عند سرديات حسن حميد، وقراءتها، والبحث، والتمحيص خلصت الباحثة إلى مجموعة من النتائج؛ وهي:

1. كسر حسن حميد قواعد التأثر بالأديان بطريقة جلية، متناولا القضايا المطروحة، والمسكوت عنها بأسلوب سردي مكلل بسمات خاصة به.
2. أسست ثقافة الكاتب، والبيئة التي سكنتها عائلته لمرجعيات مكنته من اكتناه الأثر بهذه الصورة المكثفة.
3. رسخ الكاتب زوايا المكان المنسية، وأظهر شخصيات المكان، وبصّر العالم بواقعها المغيب.
4. الشخصيات التي ارتبط وجودها بالمكان المسيحي في الروايات المنتخبة ليست من المناضلين الفلسطينيين المعروفين، وإنما جاء بشخصيات عامة، وأخرى أجنبية؛ لتوثيق مصداقيته أمام القارىء، ولكسب ثقته ووقوفه إلى جانبه دون الحاجة لاستعطافه، وقد لمسنا ذلك، وهو أسلوب جديد مغاير لما اعتدنا عليه في كتابات من تناولوا القضية الفلسطينية.
5. قربت الرموز، والحكايات المتلقي من النص، وفتحته للتأويل، والقراءات المتعددة.
6. جلل الأثر المسيحي الروايات المنتخبة بأبعاد تكوينية على المستويين الشكلي، والإنشائي للرواية؛ فأيقظ وعي القارئ، ووجهه لقضايا جديدة.
7. أثبت حسن حميد أن القضية الوطنية تضمن مساحة مناسبة لتحقيق تفاهم مشترك، وأبدي بين المسيحيين الشرقيين، والمسلمين؛ فأدخلهم في دائرة (الأنا) الوطنية المقاومة في وجه دائرة (الغير) المسيحية الصهيونية.

التوصية

يعد هذا الاتجاه في الدراسة النقدية منحى جديدا في الساحة الأدبيـــة، ولا ســـيما مـــا يتعلـــق بالكاتـــب الفلسطيني المهجر حسن حميد، وأعماله الإبداعية؛ فهي مغيبة عن ساحة الدراســـات الفلســـطينية؛ لـــذا أوصي بدراسة البعدين السياسي، والاجتماعي في أعماله الكتابية، إضافة لدراسة الرمز المسيحي بشكل منفرد ومفصل، والحكايات المسيحية، وجمالية المكان المسيحي في روايات حسن حميد المتناولـــة فـــي الأطروحة وغيرها.

إنّ هذه الدراسة ما هي إلا جهد إنساني؛ لذا فهي معرضة للخطأ، فلا كمـــال إلا لله، إن أخطـــأت فمـــن نفسي، وإن أصبت فمن الله... والحمد لله رب العالمين.

المراجع العلمية

القرآن الكريم

الأنجيل

الأب أوليفر برج أوليفييه. (1994). *الإرشاد الروحي والحياة بالروح*. دار المشرق، بيروت.

الأب فيليب الثالث. (1964). *الفداء*. (الأب لويس أبادير، المحرر)

أحمد، محمد فتوح. (1984). *الرمز والرمزية في الشعر المعاصر*. القاهرة.

أدونيس. (1972). *زمن الشعر*. بيروت: دار العودة.

أمين، عثمان. (1945). *الفلسفة الرواقية*. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

باشلار، غاستون. (1984). *جماليات المكان* (الإصدار 1). (غالب هلسا، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

بحراوي، حسن. (1990). *بنية الشكل الروائي: الفضاء* (الإصدار 1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

بسام، علي بشير. (2007). جماليات المكان في رواية " باب الساحة " لسحر خليفة. *مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، 15*(2).

بن عمر، المنجي. (2021). *الرمز في الرواية العربية المعاصرة* (الإصدار 1). المركز الديمقراطي العربي، برلين.

جريدة اليوم السابع. (2021). *الأضحية في الأديان الإبراهيمية*. جريدة اليوم السابع.

جريدة اليوم السابع. (2021). *ما المدن الأربعة المقدسة في التوراة، ولماذا يقدسها اليهود؟*

جقمان، حنا عبد الله يوسف عبد الله. (2000). جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم. *بيت المقدس، 4*(1).

الجيار، مدحت. (د.ت). *الشاعر والتراث (دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث)* (الإصدار 1). مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر.

جينيت، جيرار. (1997). *خطاب الحكاية* (الإصدار 2).

حبيب، سعيد. (د.ت). *فجر المسيحية*. دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية.

حبيلة، الشريف. (2010). *بنية لخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني* (الإصدار 1). إربد: عالم الكتب الحديثة الحديث.

حسن، حميد. (2003). *أنين القصب*. دار الفكر المعاصر.

حسين، خالد. (1999). *المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي لإدوارد الخراط*. نموذجا) مخطط رسالة ماجستير، جامعة دمشق.

حفناوي، رشيد بعلي. (2011). *مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويد الخطاب* (الإصدار 1). عمان: دروب للنشر والتوزيع.

حميد، حسن. (2021). *الأعمال الكاملة*. رام الله: الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين.

حميد،حسن. (2002). *جسر بنات يعقوب* (الإصدار 3). دمشق: دار السوسن للنشر والطباعة.

خوري، إبراهيم سلامة. (1997). *الدليل السياحي لأهم الأماكن الدينية والأثرية في الأرض المقدسة*. القدس.

د.م. (1985). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة* (الإصدار 1). (سعيد علوش، المترجمون) بيروت: دار الكتاب اللبناني.

د.م. (2008). *الصهيونية المسيحية نشأتها – مخاطرها – مجابهتها* (الإصدار 1). (جوناثان كتاب، و غازي مسعود، المترجمون) منشورات الرمال.

د.م. (2018). *موسوعة العقيدة والأديان* (الإصدار 1). (سعود بن سلمان آل سعود، المحرر) دار التوحيد للنشر.

د.م. (د.ت). *التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية*. تم الاسترداد من المعهد الإكليريكي للبطريركية اللاتينية: (slpj.org

د.م. (د.ت). *التفسير التطبيقي للكتاب المقدس*. (شركة ماستر ميديا، المترجمون) القاهرة.

د. م. (دون تاريخ). *رؤية المسيحيين الشرقيين للقضية الفلسطينية وتهويد القدس، بمناسبة الذكرى الستين لإعلان دولة إسرائيل*. مركز باحث للدراسات الفلسطينية والإستراتيجية.

دحماني، سعاد. (2008). *دلالة المكان في ثلاثية نجيب محفوظ*. رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر.

ديورانت، ول دايرل. (د.ت). قصة الحضارة. *1*(2).

زحلاوي، إلياس. (د.ت). *المسيحية واليهودية بين الماضي والحاضر* (الإصدار 1).

أبوزهرة، محمود. (2020). *محاضرات في النصرانية* (الإصدار 3). القاهرة: دار الفكر العربي.

السباتين، راجح إبراهيم. (2012). *المسيحية البروتستانتية وعلاقتها بالصهيونية في الولايات المتحدة* (الإصدار 1). دار زهران للنشر.

سكريما، أندره. (د.ت). *أصول الحياة الروحية*. منشورات النور.

السماك، محمد. (2000). *الصهيونية المسيحية*. دار النفائس.

شاهين، أسماء. (2001). *جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.

شلاش، غيداء أحمد سعدون. (2011). المكان و المصطلحات المقاربة له: دراسة مفهوماتية. *مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، 11*(2).

شوابكة، محمد علي. (2012). *ثنائيات في السرد: دراسات في المبنى الحكائي العربي*. عمان: وزارة الثقافة.

صبري، إبراهيم. (2003). *حمل الله بين الرمز والحقيقة والتذكار*.، الأخوة المتحدون للطباعة والنشر.

الطبري، محمد بن جرير. (1994). *تفسير ابن جرير* (الإصدار 1). مؤسسة الرسالة.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. (1983). *أوروبا في العصور الوسطى* (الإصدار 9، المجلد 1). مكتبة الأنجلو المصرية.

عباس، القط، خالد علي. (2016). سر التوبة والاعتراف في الكنيسة القبطية. *مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، 5*(9).

عبد الباري، فرج الله. (2004). *يوم القيامة بين الإسلام واليهودية_ موسوعة العقيدة والأديان-* (الإصدار 1). القاهرة: دار الآفاق للطباعة والنشر.

عبيد، مهدي. (2011). *جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا*. دمشق: منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب.

عبيدات، حسن. (2005). بنية المكان في الرواية السياسية. *مجلة الدراسات العربية، 1*(1).

عبيدي، مهدي. (2011). *جمالية المكان في ثلاثية حنا مينا، منشورات* (الإصدار 1). دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة.

عجيب، أحمد علي. (2004). *موسوعة العقيدة والأديان (الرهبانية المسيحية وموقف الإسلام منها)* (الإصدار 1). القاهرة: دار الآفاق.

عدوان، نمر عدوان. (2005). *المكان في الرواية الفلسطينية بعد أوسلو 1993*. رسالة دكتوراة.

العربي، قطب. (31 10، 2000). تم الاسترداد من Islamonline.com

عكاشة، محمود. (2005). *لغة الخطاب السياسي، دراسة تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال* (الإصدار 1). دار النشر للجامعات، مصر.

علي، أحمد يوسف. (1988). *لتراث ونقد الشعر* (الإصدار 1). دار النديم للنشر.

العميري، عبد الجليل. (2012). شعرية المكان في رواية ثرثرة فوق النيل. *مجلة عود الند، 7*(6).

عوض، محمد عبد الرحمن. (د.ت). *الخلاص من الخطيئة في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام*. دار البشير للطباعة والنشر، القاهرة.

العيادي، الهادي. (2007). *الكتاب المقدس في المنجز من الشعر العربي الحديث*. دار سحر للنشر، تونس.

العيد، يمنى. (1990). *تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي* (الإصدار 1). دار الفارابي.

عيسى، حنا. (2020). *القدس فيها نشأ المسيح، ومنها انطلقت المسيحية إلى العالم: أبرز الأماكن الدينية المسيحية في القدس*. مركز دراسات القدس، جامعة القدس.

غرييه، آلان روب. (د.ت). *نحو رواية جديدة*. (مصطفى إبراهيم مصطفى، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.

فتاح، عرفان عبد الحميد. (2000). *النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها* (الإصدار 1). دار عماد للنشر والتوزيع،عمان.

فيرجستون، جورج. (1964). *الرموز المسيحية ودلالتها*. تم الاسترداد من www.christialab.com

قاسم، سيزا. (1985). *بناء الرواية*. بيروت: دار التنوير.

القرضاوي، يوسف. (2000). *القدس قضية كل مسلم* (الإصدار 1). القاهرة: مكتبة وهبة.

قنديل، محمد أحمد. (د.ت). الوعي الإسلامي. *56*(652).

كيث، وايتلام. (1999). *اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني*. (سحر الهنيدي، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الكيلاني، محمد السيد أحمد. (2009). *المدارس الفلسفية في العصر الهيلستي*. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

لوران، آنى. (1995). *الثلاثة يقدسونها: القدس مدينة تجذب الحجاج المسلمين واليهود والمسيحيين من كل أنحاء العالم*. مركز مطبوعات اليونسكو.

المدرس،علي سري محمود. (2007). *العهد القديم دراسة نقدية* (الإصدار 1). الأكاديميون للنشر والتوزيع.

مرتاض، عبد الملك. (1998). *في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون*. الكويت.

المسيري، عبد الوهاب. (1999). موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. *6*(1).

ميرهوف، هانز. (1972). *الزمن في الأدب* (الإصدار 1). (أسعد رزق، المترجمون) مؤسسة سجل العرب.

النابلسي، شاكر. (1994). *جمالية المكان في الرواية العربية* (الإصدار 1). الأردن: دار الفارس للنشر والتوزيع.

النصير، ياسين. (1980). *دراسة في فن الرواية العراقية*. بغداد: دار الحرية للطباعة.

وافي، علي عبد الواحد. (1964). *الأسفار المقدسة للأديان السابقة للإسلام*، (الإصدار 2). القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

الوغليسي، أمين محمد. (2015). أهمية التاريخ عند المسلمين والصهاينة. *مجلة البيان، 336*.

اليسوعي، صبحي حموي. (1998). *معجم الإيمان المسيحي* (الإصدار 2). بيروت: دار المشرق.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

THE CHRISTION IMPACT OF HASSAN HAMEED'S NOVELS (THE BRIDGE OF JACOB'S DAUGHTERS, THE SIGHS OF THE REEDS, CITY OF GOD AND THE CRANES) AS A MODEL

By
Anwaar Fathalla Yasin

Supervisor
Dr. Adwan Adwan

This Thesis is submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2024

THE CHRISTION IMPACT OF HASSAN HAMEED'S NOVELS (THE BRIDGE OF JACOB'S DAUGHTERS, THE SIGHS OF THE REEDS, CITY OF GOD AND THE CRANES) AS A MODEL

By
Anwaar Fathalla Yasin
Supervisor
Dr. Adwan Adwan

Abstract

This study has explored a significant topic in the realm of modern literary criticism, with a particular focus on cultural criticism. Being an avid follower of Arabic narratives overall, and Palestinian narratives specifically, the researcher has been particularly drawn to the writings of Hassan Hamid. The raised issues inspired her to approach them from a fresh perspective, diverging from the traditional paths typically taken by researchers and scholars.

It followed the principles of literary criticism, focusing on the use of Christian themes and their aesthetic qualities. The novels "The Bridge of Jacob's Daughters," "City of God," "The Sighs of the Reeds," and "The Cranes," have been carefully analyzed aiming to develop new insights into why the writer draws on Christian influences, marking a significant advancement in the field of literary criticism.

It consists of an introduction, four chapters with various discussions, and a conclusion. The introduction outlines the importance of the study, the reasons for choosing these specific novels, and the key questions it seeks to answer, along with the methodology and main sources used.

In the first chapter, the researcher examines the Christian locations mentioned in the texts, exploring their types, meanings, and connections to the characters. The second chapter delves into the Christian symbols found in the novels and their role in shaping the narrative structure of the selected works.

In the third chapter, Christian stories within the selected novels have been explored, examining their significance and how they reflect reality. The fourth chapter focused on the formative and educational aspects of the Christian influence in these narratives, highlighting its powerful impact on the reader's awareness.

It has been wrapped up with a conclusion that summarized the key findings and recommendations made by the researcher, aiming to provide a foundation for future research and study.

Keywords: literary criticism, cultural criticism, narratives, forgiveness, anointing oil, beatification.